

محاضرات في تاريخ الأدب الأندلسي

دكتور

محمد حامد شريف

أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
١٥٨٤١ /٢٠٠٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله تتنسم أرجها النفوس الصافية ، وتترسم خُطاها الأرواح السامية ، وأصلي وأسلم على منبع البيان ، ومهيع العرفان والمؤدب بالقرآن ، سيدنا محمد بن عبد الله ، حامل أعلام البلاغة ، ورافع ألوية الفصاحة ، مُشَذّب شجرة الأدب ، مُهَذّب لغة العرب ، وعلى آله وأصحابه الذين ارتشفوا من رضابه واشتفوا من آدابه ، وبعد :

فهذه محاضرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، قسمتها ثلاثة أبواب وثمانية فصول . الباب الأول : عرضت فيه للأندلس الإسلامية ، أي منذ الحقبة التي أطل فيها الإسلام عليها ، فتناولت العصور الأندلسية منذ الفتح الإسلامي سنة ٩٢هـ حتى نهاية عهد العرب بالأندلس سنة ٨٩٧هـ كما عرضت للحالة الاجتماعية والثقافية والدينية ، مشيراً إلى أسباب انتشار الإسلام ولغته العربية ، وأثر ذلك كله في تكوين الشخصية الأندلسية .

أما الباب الثاني : فقد وقفت فيه على أحوال الأدب العربي وسماته ، شعراً ونثرا ، مشيراً إلى أثر الأحوال السياسية في تقدمه أو تدهوره في كل عصر ، كما عرضت لأهم الأغراض الشعرية التي ازدهرت أو اتسعت ، والفنون الأدبية التي ظهرت ، أو يمكن أن تُنسب للبيئة الأندلسية .

وفي الباب الثالث : ترجمت لبعض مشاهير الأندلس الذين أثروا الحياة الأدبيـــة ، مشيراً إلى آثارهم الأدبية ، وقد قسمتهم ثلاثة أقسام ، تمثل الأطوار الأدبية بالأندلس ، وكما وقفت على بعض الأعلام خصصت الفصـــل الأخير من الباب الثالث لكتاب سبق إلى تشريح الحب بمعناه الإنساني الواسع وهو " طوق الحمامة لابن حزم الأندلس " الذي صور البيئة المترفة هناك أصدق تمثيل .

وقـــد دعَّمـــتُ الحديث في كل فصل بالنماذج التي توضح الهدف من الدراسة ، وإني لأرجو أن أكون قد وفّقتُ بهذا القدر ،

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ .

المنصورة في : ذي الحجة } ١٤٢٠هـ

: مـــارس } ٢٠٠٠م

دكتور

محمد حامد شريف

الباب الأول

الأحوال العامة بالأندلس

الفصل الأول

الحالة السياسية

فتح بلاد الأندلس :

أطــلق العــرب كلمة الأندلس على البلاد المعروفة الآن بأسبانيا والــبرتغال ، وهي تقع في الطرف الجنوب الغربي من أوروبا، وقد عــرفت بشبه جزيرة الأندلس تساهلا ؛ ولأن الماء يحيط بها من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة (الشمالية الشرقية) فهي التي تفصل بينها وبين فرنسا جبال البرانس ، كما يفصلها عن قارة أفريقيا مضيق جبل طــارق وهــذه الــبلاد تتميز بجوها المعتدل غالبا ، وأكثرها رياض وهضاب خضراء تتخللها الأنهار .

ويُــراد بــالأندلس في التاريخ العربي الإسلامي : تلك الحقبة الزمنية الــتي امتدت من فتح العرب لها سنة ٩٢هــ ٧١١هــ في عهد الخليفة الأموي " الوليد عبد الملك بن مروان " علي يد " طارق بن زياد " إلي سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هــ ١٤٦٢م .

عهد الولاة : (٩٢هــ ١٣٨هــ)

تولي " عقبة بن نافع " ولاية بلاد البربر (شمال أفريقيا) وأسس مديــنة القيــروان . وبعد موته ظل العرب يقاتلون البربر إلي ولاية موسي بن نصير ، الذي أرسل جيشاً عظيماً سنة ٩٢ هــ بقيادة مولاه " طــارق بــن زيــاد " لفتح بلاد الأندلس . خرج طارق بن زياد من المغــرب سنة ٩٢هــ باثنى عشر ألف جندي معظمهم من البربر إلى جانب العرب ، وقد جهَّز طارق لذلك الجيش أسطولاً قوياً يقلــهم فعبر البحر إلى أسبانيا ، ونزل علي صخر هناك سميت بعد ذاك باسم جبل طــارق ، وكــان أول نزوله بالجزيرة الخضراء قبيل الفجر، فصلي الصبح وجمع أصحابه وعقد لكل رايته .

فـلما عـلم ملك إسبانيا " رودريك " بقدوم المسلمين إلى بلاده قابلهم بجيـش عظيـم هالت كثرة عـَدده ، وكمال عُـدده جيشَ المسلمين ، فبادر طارق وأحرق أسطوله ؛ ليقطع أمل أصحابه في العودة ، وقال لهـم : " أيها الناس أين المفر البحر من ورائكم والعدوُ أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ..." [١] فاندفع جيش طارق اندفاع اليائس ، إلى أن هزموا القوط (أهل البلاد) وواصلوا فتوحاتهم بأسبانيا حتى قتلوا ملكهم " رودريك " وقد كتب الله نصره للمسلمين فتوغّلوا داخل البلاد . وظلوا في تقدمهم حتى اخترقوا جبال البرانس [٢]
وفي غمرة الانتصار استـدعي موسى بن نصير للقاء الخليفة على أن يكـون فـي صـحبته طارق ، فأوقف الزحف وعاد إلي الجنوب ثم استخلف علي الأندلس ابنه " عبد العزيز بن موسي " ورجع بما حصّل مـن الغنائم والهدايا إلي سليمان بن عبد الملك ، وظل عبد العزيز بن موسـي أميـراً علي الأندلس حتي ثار عليه جماعة من الجند وقتلوه وولـوا غيره ، ثم تتابع الأمراء بين القتل والعزل حتي بلغوا عشرين والياً أولهم : عبد العزيز بن موسي وآخرهم يوسف بن عبد الرحمن الفهري الذي ظل في الإمارة حتي سنة ١٣٨ هـ ــ ٧٥٧م وقد سمّي هذا العهد بعهد الولاه لكون الأندلس كانت تحكم فيه بواسطة والٍ يعيّنه

(1) اسـتقدم الخليفة الوليد طارقا إلى دمشق بعد انتصاراته بسنة ثم توفي طارق سنة ١٠١هـ راجع جواهر الأدب للهاشمي والخطبة كاملة ص٣٨٥ ط دار الفكر١٩٨٣م .
(2) لم يتاكد ليفي بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلي فرنسا ، ولكن الأستاذ محمد عـبد الله عنان يذكر أن موسى بن نصيرعبرها إلي ليون في فرنسا (الأدب الأندلسي د/ أحمد هيكل) ص/ ٢٧ .

خـليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا ، وينتهي هذا العصر بانتهاء دولة بني أمية في المشرق .
وفي هذه الحقبة(عهد الولاة) لم تشرق شمس الأدب إلا بقدر ، حيث شـغل الـولاة بـتوطيد دعـائم الدولة وإرساء قواعدها وإخماد الفتن فصـرفهم كـل ذلك عن العناية بالعلوم والآداب ردحاً طويلاً إلي أن استقرت البلاد.
ولمـا سقطت دولة بني أمية في المشرق ، وقامت الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م تمكن "عبد الرحمن الداخل " (معاوية بن هشام بن عـبد المـلك) من تأسيس دولة أموية بالأندلس سنة ١٣٨هـ ٧٥٧م ودام حكم هذه الدولة نحو ٢٨٤سنة .

عهد الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٤٢٢هـ)

وهـي تبدأ بدخول عبد الرحمن الداخل إلي الأندلس وانتزعها من أيـدى الولاة العباسيين سنة ١٣٨ هـ وقد لقبه جعفر المنصور بصقر قريش ـ رغم عداوته له ـ وقد سكن عبد الرحمن قرطبة ولقب نفسه بـالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان . ودعا للمنصور حيـناً ، ثم قطع الخطبة له ، ثم لقب هو ومن جاء بعده بالأمراء حتى كان عهد عبد الرحمن الناصر ، فإنه لما رأى ضعف الخلفاء العباسيين واستبداد الأعاجم بهم اهتبل الفرصة ولقب نفسه بأمير المؤمنين .
ويعد عهد الدولة الأموية من أزهي عصور الحكم العربي في الأندلس ، حيـث ازدهرت فيه العلوم والآداب وذلك بتشجيع الخلفاء الأمويين لأن الكثرة منهم كانت تحذق اللغة ، وتقرض الشعر ، وتعقد المجالس

والأندية الأدبية يحفزهم إلي ذلك غرامهم بلغة الضاد [1] وينتهي هذا العصـــر بانـــتهاء ملك بني أمية في الأندلس ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجـــزين ، واخـــتيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة ٤٢٢هـ ١٠٣١م .

عهد ملوك الطوائف (٤٢٢هـ ٤٨٤هـ)

ويـبدأ بـزوال دولـة الأمويين في الأندلس ، وقيام عدة ممالك يتـنازع الحكم فيها الأمراء والوزراء ، سمُوا بملوك الطوائف كابن عـباد فـي أشبيلية وابن الأفطس في بطليوس وذي النون في طليطلة واسـتقل كـل واحـد بما تحت يده من بلاد ، وسرعان ماضطربت أمورهم ولحقهم الضعف ، فكانت الفرصة سانحة للهجوم الشمالي من أوربا المسيحية أي (الزحف الصليبي) وكان ملك قشتالة أصبح قاب قوسين من انتزاع الأندلس كلها من أيدي ملوك الطوائف بعد أن فرض عليهم الجزية ! وفي هذا الوقت الحرج التفت الأندلسيون إلى إخوانهم فـي الشـمال الأفريقي ، وقامت إليهما دولة المرابطين ــ وكانت ما تزال حديثة العهد في مراكش ، وكانت تجمع تحت سلطانها قوة بشرية ــ فأسهمت في نصرة الأندلسيين ، إذ دخلت تحت قيادة أمير المؤمنين " يوسـف بن تاشفين " ودخل الجميع معركة حاسمة ضد ملك قشتالة (الفونـس الثالث) ومن انضم إليه من أمراء ومتطوعين جاءوا إليه من وراء جبال البرانس .

---

[1] راجع الأدب العربي في الأندلس ، سليمان الأغاني ج٤ ط/١ ص٤ــ٥ ط سنة ١٩٦٠م .

وكان ابن عباد أشهر ملوك الطوائف ، وقد رفض دفع الضرائب إلي (أذفونش بن فردلند) بل قتل رسوله وصلبه ، فتوجه " الأذفونش" إلي أشـــبيلية وأقسم بآلهته ليغزون ابن عباد في عقر داره، ودخل الجميع معركة مشهورة تسمى (الزّلاقة سنة ٤٧٩هـــ) حيث انتصرت الجيوش الإسلامية علي ملوك الفرنجة ـــ الذين ضيّقوا علي الأندلسيين الخناق، وفرضـــوا عليهم الإتاوات ـــ انتصاراً مؤزراً بمساعدة " ابن تاشفين " وعـــاد ابـــن عـــباد إلي أشبيلية ، بعـــد (الزّلاقة) وجاء المهنئون له بالنصر " فقرأ المقرئون القرآن ، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه قال عبد الجليل بن وهبون: حضرنا ذلك اليوم وقد أعددت قصيدة فقرأ القـــارئ " إلا تنصروه فقد نصره الله " فقلت: " بُعداً لي ولشعري والله ما أبقتْ لي هذه الآية معنى أحضره إليه .."

وفيمـــا كانت الأندلس مبتهجة بهذا النصر تعرضت لتحدٍ آخر ، ولكن مـــن " ابن تاشفين " ، إذ عاد إليها غازياً لا مسانداً ، فقبض على ابن عباد ، ثم زجَّ به في سجن أغمات الصحراوي مذلاً إياه !

وفي هذا يقول أبو بكر الداني ، المعروف بابن اللبانة :(١)

تبكي السماءُ بمزنٍ رائحٍ غادي	على البهاليل من أبناء عبـــّاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها	كأنها إبل يحدوا بها الحـــادي
كم سال في الماء من دمعٍ وكم	تلك القطائع من قطعات أكباد

و ينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣هـــ ١٠٩١م

---

(١) راجع مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالمنوفية المجلد الأول عدد ١٧ سنة ١٩٩٩م ص ٢٣٠ـــ ٢٣١ د/ عبد الله بن علي بن ثقفان .

عهد المرابطين (٤٩٣هـ ١٠٩١م)

ويـــبدأ باســـتيلاء ابن تاشفين وجيوشه الأفريقية علي الآندلس ، وينتهي بحلول (الموحدين) ونستطيع أن نقول :
إن عهد المرابطين كان عهد ركود للأدب ، لعدم اهتمام الحاكمين من البربر باللغة العربية وآدابها ، ولجعلهم الأندلس ولاية تابعة لسلاطينهم بمـــراكش وفاس ، ولتعصبهم لآرائهم في الدين وتشددهم في معارضة من يخالفهم حتي أن" يوسف بن تاشفين " أمر بإحراق كتب الغزالي !
(ولقد ذكر أن ابن تاشفين لما حضر إلي الأندلس رغب الشعراء عن مدحــه لعــلمهم بانصـــرافه عن الأدب حتى رجاهم المعتمد ابن عباد فمدحـــوه . وفيما كان الشعراء ينشدون قال له المعتمد : هل يعلم أمير المســلمين مــا يقولـــون ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخير ، فلما انصرف إلى حاضرة ملكه ، كتب له المعتمد رسالة جاء فيها :

بنتم وبنَّـــا فما ابتلتْ جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقيـــنا
حالت لفقدكمو أيامـــــنا فغدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

(والبيتان اقتباس من قصيدة ابن زيدون) ، فلما قـُرأ هذان البيتان له قال للقارئ : يطلب منا جواري سوداً وبيضا قال القارئ لا يا مولانا ، ما أراد إلا أن ليله كان يقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالي السرور بيــض ، فعـــاد نهاره ببعده ليلاً لآن أيام الحزن سود فقال : والله جيد اكتبوافي جوابه :
" إن دموعَنا تجري عليه ، ورؤسنا توُجعنا من بعده ! " [1]

---

[1] د/ سليمان الأغاني ص ٧ .

وقد آلت الإمارة من بعد يوسف لابنه "علي بن يوسف ، وقد كان عهده عهد قلاقل واضطرابات ، إذ كان هذا الرجل متعصباً لرأيه وقد فقد الـناس حرية الفكر .. وقد زحف الموحدون إلي مدينة مراكش (مقر حكمه) فاستولوا عليها وعبروا إلي الأندلس فانتزعوها من المرابطين .
وينتهي هذا العصر بحلول الموحدين محل المرابطين في حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١هـ ١١٤٦م .

عهد الموحدين (٥٤١هـ ١١٤٦م)

ويـبدأ بحكـم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهي بسقوط دولتهم وانـتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيـدي المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨هـ ١٢٦٩م .

عهد دولة بني الأحمر أو العصر الغرناطي(٦٦٨هـ ١٢٦٩م)

ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة علي يد محمد بن يوسف العضري ــ من قبيـلة عربية من بني الأحمر ــ الذي هبَّ يدافع عن المسلمين وأنشأ حكومـة تقاتل النصارى الذين كانوا يقتطعون أجزاء الدولة وقد اتخذ غرناطة عاصمة له وظلت هذه الحكومة تقاوم زهاء قرنين من الزمان وفـي ظـل هذه الدولة انتعش الأدب وارتفعت رايته فقد كان ملوكها عـرباً يتعصبون للعربية وكان كثير من ملوكهم أدباء يقرضون الشعر ويـنقدونه ويقيمـون الـندوات الأدبية التي يتبارى في حلبتها الأدباء والشعراء .. ثم أسدل الستار على الأندلس وما بقي لنا من هذا التراث

الخـــالد ســـوى اللوعة والأسى والحسرة . [1] بتسليم هذه المدينة إلي الإسبان سنة٨٩٧هـــ ١٤٦٢م) بعد أن ظلت الأندلس في ظلال الإسلام نحو ثمانية قرون من الزمان !!

ويـــأتي القرن التاسع الهجري فتتدهور أحوال مملكة غرناطة السياسية والعســكرية ، فتتدهور معها حياة الأدب والشعر ، وهو المصير نفسه الـــذي كـــان يعانيه الأدب والشعر في المشرق العربي أواخر العصر الممـــلوكي وبذلك تتحقق مقولة أن الأدب وليد بيئته ومرآة صادقة لما يمـــوج فيها من أحداث سياسية واجتماعية وثقافية ؛ ولذلك ليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسمائها شيء ، إلا بقدر المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتصل بالأدب .

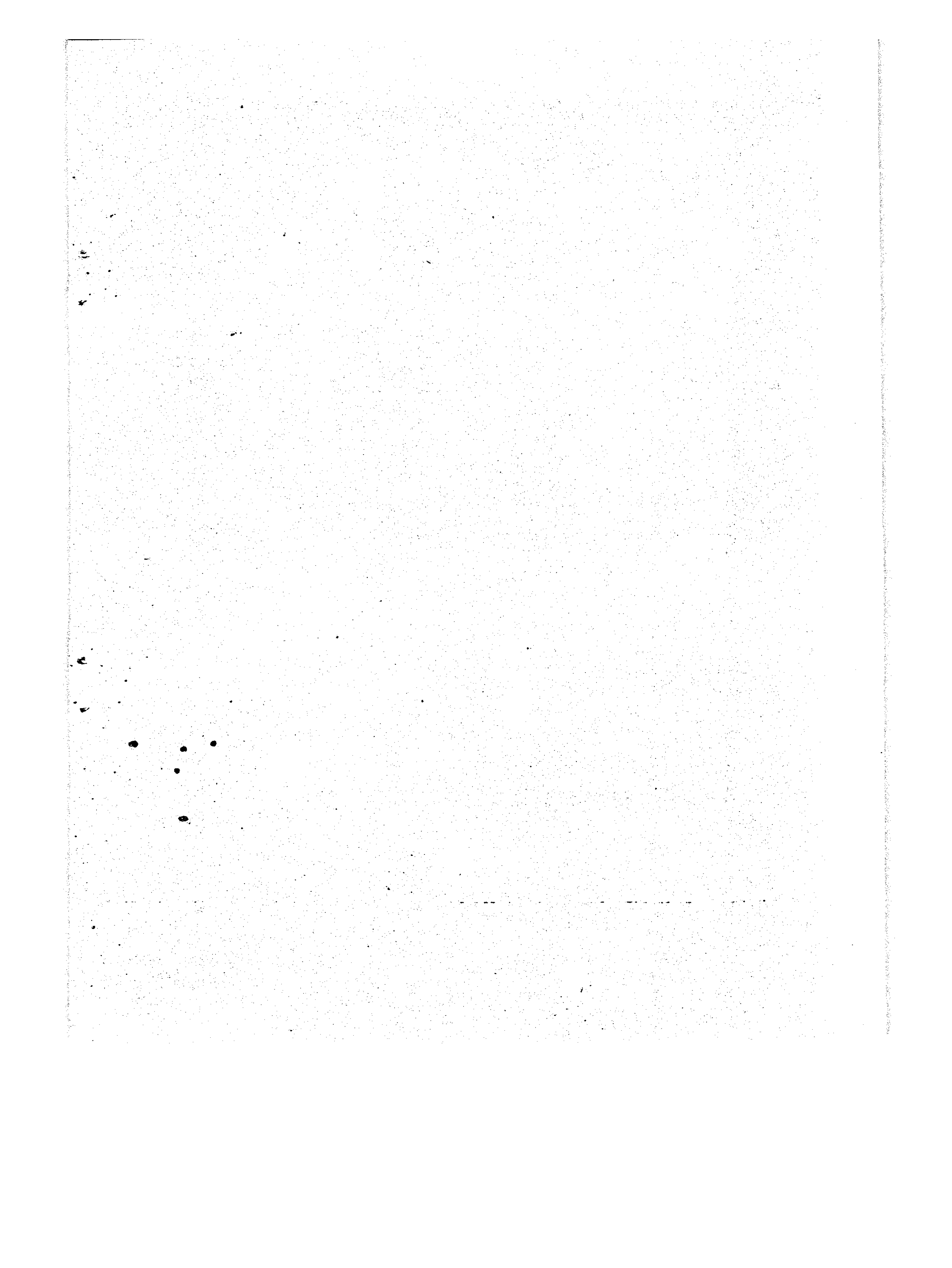
✡✡✡✡✡✡✡✡

---

[1] المرجع السابق بتصرف .

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية



طبيعة الأندلس الجغرافية :

كــانت الأندلس وما تزال من أجمل بقاع الأرض.. حتى قيل عنها بــلاد الأندلــس جنة من جنان الأرض ، ولله درّ ابن خفاجة حيث يقول : (١)

يا أهل أنــدلس لله دركمــو ماء وظل وأشجار وأنــهارُ
ما جنة الخلد إلا في ديــاركمو ولو تخيرت هذا كنت أختارُ
لا تحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تُدخل بعد الجنَّة النَّارُ

وبلاد هذه طبيعتها جعلت " المقري التلمساني " يفيض في وصف طبيعتها الفاتنة ، وحضارتها المتنوعة ، ومن ذلك ما أورده من قول أبي عبيد البكري " الأندلس شآمية في طبيعتها وهوائها ، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهوازية في عظيم جباياتها ، صينية في جواهر معادنها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة .." (٢)

العناصر البشرية في الأندلس :

لما استقر الإسلام في الأندلس ، بدأ كثير من العرب ينزحون إليها كما هاجر إليها كثير من أهل البلاد الإسلامية ، وامتزج الوافدون بسكان البلاد الأصليين بالمصاهرة ، فنشأ من الفريقين جيل جديد .

وقد وجد العرب بالأندلس بيئة اجتماعية مختلفة عن بيئة أسلافهم المشارقة فهي بيئة أوربية الأصل يقطنها قوم من القوط والإسبان واليهود وغيرهم من الأهلين . لهم أديانهم ، وتقاليدهم ، وطرائق معيشتهم بالإضافة إلي جانب مفردات اللغات المختلفة ،ومفردات البيئة الطبيعية المختلفة ، ومن ثم أنتجت المصاهرة والتقاء

---

(١) ديوان ابن خفاجة ص/١١٩ط/ دار صادر بيروت ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب لأحمد بن محمد المقري التلمساني المتوفى ١٠٤١هـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ج /١/ ٦٣ط دار الكتاب العربي بيروت.

الحضارتين مولوداً حضارياً جديداً يحمل سمات من كل منهما ، وقد استمر هذا الزواج مايزيد على ثمانية قرون مختلفة ظهرت خلالها ثمـــار حضـــارية ناضـــجة وأصـــبح المجتمع الأندلسي مزيجا من العناصر البشرية وأهم تلك العناصر ما يلي:(١)

١ـــ العرب :

وهـــم الطبقة الغالبة التي دخلت البلاد وانتشرت في أقاليمه المختلفة ، وعملت على نشر الإسلام واللغة العربية (وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على أسبانيا في شكل جنود لا في **كل** أسر أي أنهـــم لـــم يـــأتوا في أغلب الأحيان بنسائهم وزوجاتهم حتى يمكن الانعـــزال بشـــرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بحالتهم الـــتي جـــاءوا عـــليها مضطرين إلي الاتصال الأسري بسكان شبه الجزيـــرة حتى يكوِّنوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم الجديدة التي ســـتربطهم بـــالوطن الجديـــد ، وتبقِي نوعهم به ، وقد كان هؤلاء العرب الوافدون كثيرين بحيث أصبح امتزاجهم بالأسبان عن طريق المصاهرة أمراً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسي وأهم مكوناته كافياً البشرية (١)

٢ـــ البربر:

وهـــم الذين وفدوا إلي بلاد الأندلس من شمال أفريقيا ، وقد كـــانوا يمثلون معظم جيش طارق بن زياد ، وهم يشاركون العرب في الإسلام والبداوة والعصبية القبلية كما شاركوهم في فتح البلاد .

٣ـــ الإسبان:

وهم أهل البلاد الأصليون ، وهم المسمون بعجم الأندلس .

---

(1) الأدب الأندلسي د/ أحمد هيكل ص ٣٢ .

٤ــ المولدون:

وقـــد نشـــأت هـــذه الطـــبقة من تزاوج العرب الفاتحين بالأندلسيات أو بغيرهم فكان منه هذا الجيل الجديد

٥ــ المماليك:

وقد كانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية وخاصة من المناطق السلافية وغيرها ثم يباعون في أسواق أسبانيا وقد عرف هذا النوع مـــن الـــرقيق في الأندلس باسم الصقالبة ، ثم غلب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافيا ، وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرون أيام عبد الرحمن الداخل .

ولستُ أعنى بما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مهلهلا .. فالحق أنه بـــرغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس كانت الروابط القوية تشد بعضـــهم إلي بعض في أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميـــز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، عـــلي أن أهـــم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قـــوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشري الذي يمـــثل أكـــثر سكان الأندلس هو العنصر العربي الممتزج علي مر الســـنين بالعنصر الإسباني ــ أبرز عناصر المجتمع ــ وهم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين .

۞۞۞۞۞۞

سمات الشخصية الأندلسية :

عــرف الأندلســيون بشخصية مميزة أسهم في تكوينها طبيعة إقليمهم وموضع بلادهم ويمكن أن نجمل السمات العامة فيما يلي : تبــع اختلاف طبيعة الإقليم اختلاف في ميول ونزعات الشخصية فهم بين جلالقة في الشمال الغربي ، وقطلانيين في الشمال الشرقي وبكشــنس فــي الشمال وقشتاليين في الوسط وجنوبيين فيما وراء الجبال السمراء ، وقد اتضح هذا الانقسام الذي سبته الطبيعة وغذاه الدم ، فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك أو مــن حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة أو تلك أو من روح تمرد يــبديها هــؤلاء أو أولــئك ، وكــان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند لإخضاع ثورة إقليم مسلم أو لرد هجمة جيش مســيحي .. وقد سبب ذلك نوعاً من القلق في المجتمع الأندلسي ، فكــان في كثير من عهوده قليل الاستقرار كثير الهزات . ومن هنا يمكــن أن نتصــور الشخصية التي عاشت في ظلال هذه الظروف السياسية ، إنها شخصية قد طبعت بطابع القلق والاضطراب ، وهذا مــا جعــلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلي ما يسكن على الأقل بعــض هذا القلق . ولربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلســيين إلى ألــوان مــن المتعة وصنوف من اللهو، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى وما أشبه ذلك مما كلِف به الأندلسيون على أن الطبيعة الأندلسية المتباينة وإن كانت سبباً في ظاهرة القلق فقــد عوضــت أهــلها بظاهــرة حسنة كان لها أثرها في نفوسهم وطباعهم ثم في آدابهم وفنونهم ألا وهي تلك السهول الخصبة ذات الجمــال الطــبيعي الفــاتن الذي انعكس عليهم خصوبة في خيالهم وجمالا في طباعهم ورقة في أحاسيسهم وكان منهم من غلب عليهم طابع المحبين للجمال مشهدة وتمثيلا ثم محاكاة وتصويراً .

وقـد كـان عنصر التقليد بارزاً عند خلفاء الأندلس فقد قلدوا خلفاء الشرق في كل شئ حتى أنهم لقبوا أنفسهم بنفس الألقاب التي تطلق فـي المشـرق فمن ذلك المتوكل والمنتصر بالله والمعتمد علي الله والمـأمون والمعتصم والمقتدر وكانت مجرد ألقاب ، فقدت معناها وقيمتها حتى قال ابن رشيق :

ممـا يزهدني في أرض أندلـسٍ ۞ سماعُ مقتـدرٍ فيهـا ومعتضـدِ

ألقـاب مملكةٍ في غير موضعـها ۞ كالهرِ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ

كمـا كـانوا يقـلدونهم في تكوين الجيوش وإعدادها فعندما يكوِّن المعتصـم جيشـاً من الأتراك يكوِّن عبد الرحمن الناصر جيشاً من الممـاليك الذين عرفوا بالصقالبة ، أما ما كان من اختلاف لأصل الأندلسـيين ودمائهم وموروثاتهم من قبل مجيء العرب ثم مولدين من عرب وإسبان ومن شرقيين وغربيين .. كان من نتائج ذلك أن أتى العنصـر الأندلسـي المولد **بخصائص خِلقية وخُلقية وعقلية ونفسية مميزة** علي النحو التالي :

فالخصـائص الخِـلقية : كالبياض المُشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة في الجنوب . ثم القوام المعتدل والشعر الذي يغلب عليه السواد مع وسامة الملامح وجمال التكوين .

والخصـائص الخُلقية : كالمحافظة على الأصول الأخلاقية العامة لكـن مـع ميلٍ للتحرر والانطلاق وبغض للتزمت ومن هنا كانوا يكـلفون بالشراب وقد ساعدت عليه كثرة الكروم في بلادهم ، كما كـانوا يهيمـون بالموسيقى والرقص وهي فنون ربما كانت أنسب شيء إلى ظروفهم النفسية المطالبة بنوع من التنفيس ، ومما يتعلق

بالأخلاق أو بالعادات كلفهم بالنظافة وحبهم للتأنق وميلهم إلي الزينة ..ثم انفرادهم بتقاليد في الزي تخالف ما كان عليه أهل الإقليم الإسلامية الأخرى فهم كانوا — في بعض عهودهم — يميلون إلي كشف الرأس وعدم لبس العمائم ، وكان المعممون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمائم مغايرة تماماً لما كان عليه المشارقة وكان من أهم ظواهر المخالفة للمشارقة في تقاليد الزي اتخاذهم البياض لوناً للحداد ! وقد أشار إلي تلك العادة الشاعر أبو الحسن الحصري في قوله :[١]

إذا كان البياضُ لباسَ حزن ... بأندلسٍ فذاك من الصواب !
ألم ترني لبستُ بياض شيبي ... لأني قد حزنت على شبابي

وكذلك أتَوا بخصائص عقلية : أهمها الذكاء الذي يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلي التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر ومن هنا كانوا يبعدون عن التفريعات والتعمق والتفلسف .

وقد توفَّر في المجتمع الأندلسي كثير من أسباب اللهو والشدو ، والرغبة في الطرب والغناء ، ولربما كان هذا من أسباب ظهور فن الموشحات وتفوقهم فيه ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي :

" وعندنا أن الذي نبَّه إلى اختراع أوزان التوشيح إنما هو الغناء لا غيره فإن تلحين البيت من الشعر قد يجيء على بعض الوجوه كالموشح ، إذ يخرج جملاً مقطعة تتساوق مع النغم ، فلو تنبه إلى ذلك أديب موسيقي لأمكن أن يضع أوزاناً على هذه التقاطيع ، وهم لا يختارون للغناء من الشعر إلا ما احتمل في حركاته حسن التجزئة وصحة التقسيم [٢]

---

(1) الأدب الأندلسي د/ أحمد هيكل ص/ ٥٢

(2) تاريخ آداب العرب ج٣ ص ١٦ .

فظهـــور الموشحات في الأندلس ، كان نتيجة لحاجة غنائية وهو ما يتصل بخصائص عقلية ، ولحاجة اجتماعية ، وتلك ناحية أخرى .

وأما الخصائص النفسية المميزة : فهي إحساس يكاد يكون مركب نقــص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشارقة ، فالمشارقة مهــد الــثقافات الإسلامية ومنبع اللغة العربية ومصدر الاتجاهات الأدبية.. فكل شيء يظهر أولاً في المشرق ثم يأخذ منه الأندلسيون؛ ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف ؛ ولهذا يحاولون أن يعوضـــوا ذلك فيتعصبون للدين تعصباً شكلياً حيث يتعلقون بمذهب الإمـــام مالك مثلاً تعلقاً وشك أن يكون جموداً على حين يترخصون في كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين ، وهم كذلـــك يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً حين يفتتنون بعلم النحو ويقتـــلونه درساً وتأليفا، ثم هم في الوقت نفسه يتخذون لحياتهم لغة أبعـــد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفســـها . وكذلـــك يتعصـــبون ظاهرياً ببعض العلوم الأخرى بدافع الإحساس بالنقص .

وقـــد أســـهم اقتصـــاد بيئة الأندلس كذلك في تكوين شخصية الأندلســـيين ، فقـــد كـــانت الأندلـــس في أغلب عهودها بيئة غنية بالزراعة النامية ..

وممـــا يتعـــلق بهذا النزوع النفسي : أن الأندلسيين كانوا متعصبين لأرض بلادهم ، نلحظ ذلك في تراجم علمائهم فهذا يلقب بالمالقي ، وهـــذا بالبلنسي ، وهذا بالغرناطي أو بالشاطبي ، كما يلاحظ قارئ الأدب الأندلسي أنه قد بني على حب المكان ، هي محبة أشار إليها عـــبد الـــرحمن الداخل منذ سمى قصره بقصر الرصافة على اسم قصر جده في الشام ، متخذاً من تلك النخلة التي أهديت له وزرعها في حديقة قصره رمزاً للانتماء ولحب المكان .

ومما يتصل بالزراعة والري : فقد ذكر المؤرخون القدماء أمثلة لأنماط الحياة الاجتماعية في الأندلس ، تثبت أنهم قد اصطنعوا كثيراً من التقاليد والنظم وأنواع المعيشة التي عرفت هناك من قبل الفتح الإسلامي ومنها : احتفالهم بزمن العصير حين تجمع الثمار في الحقول ،وهو من الموضوعات التي عبر عنها شعراء الأندلس **وكذلك مما يتصل بالزراعة** ، إطلاقهم كلمة " المجشر " علي الضيعة ، وإطلاقهم كلمة الوادي علي النهر خاصة ، ومن هذا القبيل تخصيصهم كلمة باكور بما بكر من التين وإن كانت الكلمة لكل ما بكر من الثمار ...

ولم تكن الزراعة هي مصدر الرخاء الوحيد ، بل كانت هناك الصناعة أيضاً وكانت تعدُّ من أهم دعائم الاقتصاد الأندنسي حينئذ فقد وفد على الأندلس كثير من الصناع المهرة .. كما كان للتجارة شأن كبير في المجتمع الأندلسي بما له من ثغور عديدة شجعت على رواج منتجاتها واستقبال منتجات الآخرين ، فقد كانت أشبيلية تصدر القطن والزيت وتستورد المنسوجات المصرية الشهيرة ، وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وغير ذلك من البلدان . فقد كان للأندلس علاقات تجارية مع باقي بلاد العالم الإسلامي وعواصمه كمكة وبغداد ودمشق ..

وهكذا أسهم الرخاء الاقتصادي كثيراً في تكوين الشخصية



الفصل الثالث

الحالة الثقافية

الثقافة العربية بالأندلس :

الحديث عن الثقافة في الأندلس هو حديث عن الأدب في المقام الأول ؛ لأنه مظهر الثقافة العربية ومرآة لحياة العرب العقلية والاجتماعية وأساس الحضارة في الأندلس يقول الرافعي " تلك الطبيعة التي ترسل النسمات أنفاساً موسيقية ، تؤخذ شعراً وتلفظ ألحاناً ، بذلك حُبب إلى أهلها الأدب وطبعوا على هذه الشيمة .. ومازالوا يضربون المثل بأهل (أشبيلية)بلد المتنزهات في الخلاعة والمجون ، والتهالك على الشعر والغناء ، وإنما كان يُعينهم على ذلك واديها البهيج .. وهي مدينة وصفوها بأنه لا يكاد يرى فيها إلا عاشق أو معشوق .. ومما خُصت به غرناطة ــ التي تسمى دمشق الأندلس ــ نبوغ النساء الشواعر فيها ، ك" نزهون القلعية " و " حفصة الركونية " وغيرهما ، وناهيك بهما من شاعرتين ظرفاً وأدباً فإذا كانت أنوثة تلك الطبيعة قد أنطقت النساء! فكيف بالرجال ؟ (١)

والقارئ لتاريخ الأندلس " يعجب من ازدهار الحضارة والعلم في وسط هذا الاضطراب ، ويفسر هذا شيئان الأول : أن بعض الأمراء الحازمين حكموا مدة طويلة كخمسين سنة أو نحو ذلك استقامت فيها الأمور وازدهرت فيها الحضارة والعلم ، كعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبي عامر. والثاني : أنه يظهر أن العلماء أو بعضهم كانوا يكوِّنون لأنفسهم جواً هادئاً يسود فيه العلم ، ويبتعدون فيه ما أمكن عن السياسة رغم الفتن والقلاقل .." (٢)

وقد زاد من عناية الناس بتحصيل اللغة والإقبال علي تعلم أساليبها وتعبيراتها أن الذين حكموا البلاد أولا ــ من بني أمية ــ كانوا متعصبين للغتهم وآدابها يحملون الناس على تحصيلها حملا ، وكان

---

(1) تاريخ آداب العرب ج٣ ص٢٦٧ .

(2) ظهر الإسلام ج ٣ ص/ ١٧ .

منهم الخطباء والشعراء ــ كعبد الرحمن الداخل وأبنائه ــ كما كانوا على جانب من حلية البلاغة والفصاحة .
وكان عهد ملوك الطوائف يفضل عهد دولة بني أمية ، في تقدم ا للغة وآدابها حيث تنافس هؤلاء الحكام في تشجيع العلم والأدب وإرضاء العلماء وإجازة الأدباء والشعراء ومنحهم الهبات ، واتخذوا من الأدباء والشعراء الوزراء والحكام ، وكثيراً ما يمم شطر مجالسهم الأدبية عشاق العلم والأدب والشعر فعقدوا المجالس الأدبية وكانوا هم نجومها اللامعة وكواكبها الساطعة وحسب هذا العهد فخراً أن يكون بين شعرائه ابن زيدون ، والمعتمد بن عباد ، وابن سهل الإسرائيلي وهم من هم شاعرية وذيوع صيت وشهرة [١]
وعلى كل حال: يمكن أن ُيلاحظ على الثقافة العربية بالأندلس ما يلي :
أولا : بالنسبة للأدب : فقد سار في طريق التقليد للمشرق ، حيث نظر الأندلسيون إلي المشارقة علي أنهم الأساتذة لهم ، فكانوا يحاكونهم ويلتزمون بما التزم به المشارقة قديماً فنجد مثلاً أن نظام القصيدة العربية الذي عرف في المشرق بأوزانه وقوافيه وأغراضه حيث ينتقل الشاعر من موضوع إلى آخر ، تكاد تكون هي هي عند الأندلسيين ،
ولعل الدافع عندهم : هو شعور الأندلسيين بأنهم جزء من العالم العربي ، وأنهم حملة التراث العربي كالمشارقة ، كما أنهم كانوا يرون أن المشرق هو مهد اللغة العربية ، وموضع ظهور الدين الإسلامي ، ومكان الخلافة الإسلامية الأولى ، وهذا ما جعلهم يبذلون الجهد في سبيل محاكاته ومحاولة الوصول إلى مستواه ، وقد ساعد على هذا التقليد سرعة الاتصال بينها وبين المشرق فعلماؤها وأدباؤها يرحلون إليه وكذلك يرحل إليها علماء المشرق وأدباؤه ، ومن لم يذهب من المشرق إلى الأندلس أرسل إليه بآثاره أو نقلها إليه هؤلاء الأندلسيون

[١] راجع د/ أحمد هيكل ص/٢٨، والأدب العربي في الأندلس د/ سليمان الأغا ص/٦ .

الذيـــن يجوبـــون الأقطـــار الشرقية للبحث عن المنابع الهامة للأدب والـــثقافة . وكـــانت أمهات كتب الأدب التي تؤلف بالعراق تروى في الأندلس بالسند إلى مؤلفيها على تفاوت بين الأسانيد قوةً وضعفاً ومن ذلك قول الأمير الحكم المستنصر : " لم يصح كتاب الكامل عندنا إلا مـــن قِـــبَل ابن أبي قلاعة ، وكان ابن جابر الأشبيلي قد رواه قبل بمصـــر ، وما علمت أحداً رواه غيرهما ، وكان ابن الأحمر القرشي يذكـــر أنـــه رواه ، وكـــان صدوقاً ، ولكن كتابه ضاع ، ولو حضر ضاهى الرجلين " (١)

ولعل من الغريب أن يعرف القارئ أن كتابي " البيان و التبيين " و " التربيع و التدوير" نقلا في حياة الجاحظ إلى الأندلس . وأرسل أبو الفرج الأصفهاني لعبد الرحمن الناصر نسخة من كتابه "الأغاني " كما نقـــل ديوان المتنبي في حياته إلى الأندلس : نقله ابن الأشج الذي قابل المتنبي في الفسطاط عام ٣٤٦ للهجرة .(٢)

ويســـتمر هذا التأثر بالشرق ومحاولة المحاكاة والوصول إلى مستواه طـــوال عصـــر الولاة ، والعصر الأموي حيث العكوف علي الشعر القديـــم والقيام برحلات كثيرة إلي المشرق لأداء فريضة الحج ، ولقاء العلماء ؛ ولذلك ذاعت ثقافة العرب بالأندلس ، وسيطرت على عقول الخاصة منهم بعد أن كانت تسيطر عليهم الثقافة اللاتينية .

وقد تكونت نتيجة لهذا التزاوج والامتزاج لغة مشتركة للتعايش اليومي بين العرب وأهل الأندلس ، وبدَهي أن تقترض تلك اللغة مفرداتها من اللغـــتين معـــاً ومن ثم أصبح كل طرف قادراً على التأثر والتأثير في

---

(1) نفح الطيب ج١ص٣٩٢. وابن قلاعة : محمد بن أبي قلاعة البواب ، سمي من أبي علي بن سليمان الأخفش عن المبرد كتابه الكامل .

(2) راجع الفن ومذاهبه في الشعر العربي د. شوقي ضيف ص٤١٦

آداب الآخـــر وفـــنونه ، وأنصت الفنان العربي لتلك الأغاني الإسبانية القديمـــة التي كان يتناقلها المغنون الجوالون (التروبادور) وينشدونها في الطرقات وفي الحفلات والمناسبات .

وقـــد انتشرت اللغة العربية حيث أقبل عليها أهل الأندلس ــ لا فرق بيـــن مسلم وغير مسلم ــ ؛ نظراً لأنها لغة الحضارة الغالبة ، ولسان الممتازين ذوي السلطان ، من ناحية ، ولأنها لغة الإسلام ، من ناحية ثانيـــة ، وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد كما صار الإسلام دينها الرسمي .

<u>ثانيـــاً : مـــن ناحيـــة المدارس الأدبية في الأندلس</u> : لم تكن من الوضوح والتميُّز كما هو الحال في المشرق . فمدرسة **المحدثين** التي يمثلها بشار وأبو نواس والخلاف بينها وبين **المحافظين** ثم مدرسة أبي تمـــام الـــتي تمثل **الصنعة الشعرية** والتي تقابل مدرسة البحتري التي تمـــثل **الطبع** ثم اتجاه المتنبي وأبي العلاء من بعده .. كل ذلك ليس له أثر واضح في الأدب الأندلسي ، بحيث نستطيع تقسيم شعراء الأندلس إلـــي مـــدارس أدبية . ولعل السبب في ذلك :هو أن الشعر الأندلسي والحياة الأدبية في الأندلس قد ظهرت متأخرة زمنيا ، ففتح الأندلس لم يـــتم إلا فـــي آخـــر القرن الأول الهجري ولم تستقر أحوال المجتمع الأندلســـي ليتعرف علي الشعر والنثر إلا في القرن الثاني الهجري .. ومعـــنى ذلك أن المعارك الأدبية في الشرق وبخاصة معركة المحدثين والقدمـــاء ، وصلت متأخرة إلي الأندلس بعد أن خفـــّت حدتـــُها . كل ذلـــك كان من الأسباب التي جعلت الأدب الأندلسي يسير مقلداً أدب المشرق ردحاً طويلا .

وقـــد حـــرص الأندلســـيون على استقدام بعض العلماء إليهم ليقوموا بالـــتدريس في مساجد الأندلس الكبرى ، ومن هؤلاء : أبو علي القالي الذي ألّف أماليه في مسجد الزهراء في عهد عبد الرحمن الناصر .

ولـــم يكن الوافدون من المشرق من علماء اللغة والأدب وحدهم ، بل وفــد عدد من رجال الفنون منهم الموسيقار المشهور " زرياب " الذي أحــدث فـــي الموسيقى الأندلسية تجديداً كبيراً ، ونقل إليها كثيراً من ألحـــان المشرق ، ونظريته الجديدة حيث أضاف وتَراً خامساً للعود ، كما جعل الغناء منازل ، يعتمد فيه على التنويع ، مما جعل الأندلسيين يشعرون بتخلف القصيدة العربية التقليدية أمام النغم الجديد ، وأصبحت الحاجــة مــلحة إلى وجــود شعر جديد تتنوع فيه الأوزان وتتعدد فيه القوافـــي ، وتكـــون الموســـيقى أساساً من أسسه وانتهى الأمر حينئذ بظهـــور ذلـــك الشـــكل الملائم الذي ينظم للتلحين والغناء ويكفل هذا التنويع النغمي ألا وهو فن الموشح.

ولـــم يقتصر هذا التأثير على الجانب الموسيقي النغمي فقط وإنما امتد ليشمل المضمون التي دارت حولها تلك الفنون .

<u>ثالــثاً :</u> حقـــبة النضج والاستقلال الأدبي ، وفيها تجلت الشخصية الأندلسية شيئاً فشيئا حتى شهد القرن الرابع والخامس الهجريين نهضة علمية وأدبية كبيرة ، تنافس فيها الأمراء ـــ الذين انقسموا على أنفسهم إلـــي دويـــلات صغيرة ـــ في استقطاب العلماء والشعراء والأدباء ، وحـــاول كـــل منهم أن يصنع من ممنكته قبلة لهم ، فكان المعتمد في بـــلاط بـــني عباد لا يستوزر وزيراً إلا إذا كان شاعراً ، وكان بلاط مجاهد العامري يغصُّ بالعلماء والفقهاء والأدباء ، وقد أنتجوا أدباً ، لا يقل شأناً ولا جودةً عن أدب المشارقة .

<u>رابعـــاً :</u> بالنســـبة لأصـــالة الأدب الأندلسي أو تقليده ، اختلفت آراء الباحثين حوله فوجدنا من يقول : إن الأدب الأندلسي ما هو إلا صورة مـــن أدب المشـــرق بحيث أننا لو جهلنا قائل القصيدة لما استطعنا أن نميـــّز هذا الأدب أهو مشرقي أو أندلسي ، وقد حُكي أن أبا يحيى بن الحكم المعروف (**بالغزَّال**) ذهب إلى العراق بعد وفاة أبي نواس ، ثم

جـــلس يومـــاً إلـــي جماعة من أهل الأدب فوجدهم يـُقللون من شأن الأندلســـيين وأدبهـــم ، واستهجان أشعارهم ، حتى وقعوا في ذكر أبي نواس فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشَّربَ أكدتْ سماؤهم   تأبطت زقي واحتبست هنـــائي
فلمـــا رأيت الحان ناديت ربـــَّه   فهبَّ خفيف الروح نحو ندائـــي
قليل هجوع العين إلا تعلــــــة   على وجَـلٍ مني ومن نظرائـــي

فلما سمعوا هذا الشعر أعجبوا به وذهبوا في مدحهم له ، فلما أفرطوا قـــال : خفضوا عليكم فإنه لي ، فأنكروا ذلك ، فأنشدهم قصيدته التي أولها :

تداركت في شرب النبيذ خطائي ۞ وفارقت فيه شيمتي وحيائي

فلما أتـــَمَّ القصيدة بالإنشاء خجلوا وتفرقوا عنه . [١]

وهذا الموقف له عدة دلالات : **الأولى : شدة التأثر والمحاكاة** للمشرق حتى أصبح صورة منه يمكن أن تـُعزي إليه ، وهذا دليل على وجهة نظـــر مـــن رأى أن أدب المشرق قد استحوذ على أدب المغرب ، فلم يســـمح له بالخروج عنه في الوزن والقافية والسجع ونحو ذلك ، وهذا مـــا يراه الأستاذ أحمد أمين فيقول : " قرأنا كثيراً من آثار الأندلسيين وقـــد دخلنا في بحث الموضوع ونحن نعتقد أنا قادمون على شئ جديد مبـــتكر فإذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة .. كما يقول معلقاً على موقف الغـــزال : " والحـــق أنهم خدعوا أنفسهم بالإعجاب بها إعجابهم بشعر أبي نواس لأنها أقل قيمة من شعره ، وكم خدع الناس بالأسماء ". [٢]

---

(1) نفح الطيب ج٣ ص٢١ ـــ ٢٨ . والشَّرب بفتح الشين جماعة الشاربين . وأكدتْ سماؤهم أصل معناه : احتبس مطرهم وهي كناية عن قلة ما عند أصحابه من الشراب . الزق : الديك والطائر والمكاء ، ونحوه (اللسان زقا)

(2) ظهر الإسلام ، د. أحمد أمين ج٣ / ١١٠.

ولعـــل من طبائع الأشياء أن لا يكون كل جديد مبتكر مقطوع الجذور منفصلا عنه ، بل لابد من أن يحمل في طياته خطوط القديم ويحتذيه ، وإلا لثارت عليه الثوائر ، وهو في مهده فلا يجد متنفسه الطبيعي.

والدلالـــة الثانية :تلك النظرة الاستعلائية التي كان المشارقة عليها ، واحتقارهم للنتاج الأندلسي ، ظهر ذلك على لسان بعضهم ، كقول أبي العـــلاء المعـــري عن شاعرية " ابن هانئ الأندلسي" : " إنها كالرحي التي تطحن قروناً " وقول الجاحظ عن الأندلس : " إنها طينة حمقاء " .. إن هـــذه الـــنظرة الدونيـــة مـــن قبل المشارقة قد جعلت المفكرين الأندلسيين يتخذون موقفاً من المشارقة ، وممن ينتمي لهم في بلادهم ! **فأمـــا موقفهم من المشارقة**: فقد تمثل في الدعوة لإيجاد أدب قومي ، **وأمـــا موقفهم ممن ينتمي للفكر الشرقي** : فقد كان موقفاً مضطرباً لأنهـــم كُثر ؛ لهذا وجدنا التباين في كتب التراجم ، فبعضهم يحجم عن ذكـــر بعض الأسماء وبعضهم الآخر يذكرهم خلخلة الفكر التي جاءت من اضطراب هؤلاء المفكرين ، وموقفهم ضد كل ضعيف في انتمائه للأندلـــس أو ضـــعيف فـــي فنّيته ؛ ولذا نجدهم قد أحجموا عن ذكر الموشحات والأزجال [1]..

والدلالة الثالثة : ما بلغه الشعر الأندلسي من **نضج** حينئذ ، بحيث ما يـــرى أحياناً من التطابق بين شاعر أندلسي وآخر مشرقي في طريقة الـــنظم ، وفـــي الخصائص الأسلوبية والمعاني إلى الحد الذي يصعب معه التمييز بينهما معه التمييز بينهما .

فالعـــربي الذي وفد مع الفتح بدوي الديباجة تقليدي المذهب يحمل لغة هي نفسها التي يصور بها أحاسيسه ومشاعره ، كان على هذا البدوي أن يرصد بلغته الشاعرة كل جديد وأن يطوع خياله وأن يلون موسيقاه

---

[1] مجلة كلية اللغة الربية بالمنوفية ص٢٦٤ ، ٢٦٥

فـــي شـــيء مـــن التجديد ، بيد أنه تجديد متئد يمكن أن يساير طبيعة الأندلسيين .

۞۞۞۞۞۞

الثقافة الدينية بالأندلس :

أضـــحت البيئة الأندلسية على المستوى الحضاري تحتضن أرقى مفـــردات الحضـــارة ، وتعايشـــت فيها الأديان ورحبت بوجود الآخر لدرجـــة أن اليهـــود عاشوا فيها أزهى عصورهم ، كما عرف الأدب العبري عصره الذهبي في الأندلس نتيجة لهذه الحرية من جهة ولتأثره المباشر بالأدب العربي المزدهر من جهة أخرى .

كما كان جل اهتمام الفاتحين العرب هو نشر هذا الدين الإسلامي في ربوع الأندلس وسرعان ما دخل فيه الناس أفواجاً ـــ وهم عناصر شتى ـــ منهم من دخل في الدين لسماحته ويسره وصدق القائمين علي نشره ، ومنهم من دخل في الدين حفاظاً علي ما تحت يده من أرض ، وانضـــماماً إلـــي تلك الطبقة الفاتحة وتقرباً إليها وربما فراراً من دفع الجـــزية . وكذلك دخل في الإسلام من النساء من تزوجت من العرب مـــتابعة لـــزواجها في دينه . وهكذا حتى صارت الغالبية العظمي من أهـــل الـــبلاد مســـلمين ، وتجاورت المساجد والكنائس وبقيت قلة من المســـيحيين علي دينهم ، ومع ذلك فقد عاش الجميع في ظل الحضارة الإســـلامية ينعمون بحسن المعاملة ويرقـــون إلي المناصب الكبيرة . ومن أمثلتهم " أرطباس " المسيحي الذي لقي التكريم من عبد الرحمن الداخل . وكذلك " حيرون " الذي كان قاضياً للنصارى بقرطبة في أيام الحكـــم المستنصـــر والذي كان يقوم بالترجمة أحياناً بين الخليفة وبين الأســـبانيين . وقد كان هناك علماء كثيرون قاموا بنشر علوم الحديث والفقه والقراءات والقرآن من أمثال عبد الله بن حبيب السلمي ويحيى بـــن يحيى الليثى وقد قاما بنشر مذهب الإمام مالك في الأندلس ، وابن

حـــزم الظاهـــري ، وله كتاب في أصول الأحكام وقد انتقل إلي القول بالظاهـــر حتى لقب بالظاهري . **وفي علم القراءات** : نرى من سبق إلى التأليف فيه عن دراية وإحكام مثل الشاطبي الذي رحل إلى مصر ولعـــلمه الغزيـــر كان الناس يزدحمون في حلقته ازدحاماً يصل إلى التشـــابك حرصـــا عـــلى الدنو منه وابن مالك ، والقرطبي صاحب التفسير .

النهضة العلمية العامة :

ومما يتصل بالإدارة فقد أطلقوا كلمة " خُطة " علي ما يعرف بالإدارة فهـــم يقولـــون خطـــة الشرطة وخطة السوق وخطة الاحتساب بمعنى الإدارات المســـئولة عن تلك الشئون وكذلك إطلاقهم كلمة " المسدد " على حاكم البلدة الصغيرة وكلمة " الدراب " على حارس الدرب . وقد لاحـــظ ابـــن خلدون أثناء زيارته لغرناطة أن مجتمعها يختلف اختلافا كـــبيراً عـــن المجـــتمع الـــذي عـــرفه في الشمال الأفريقي (تونس والجزائر..) وقد ردَّ هذا إلى محاكاة الأندلسيين لجيرانهم المسيحيين . وهكـــذا تحولـــت الأندلس إلي مركز ثقافي ، إليه تهفوا القلوب ، تعلما ودراســـة وتأليفا . **ففي الطب** : قامت هناك أربع مدارس في قرطبة وأشـــبيلية وطليطـــلة ومرسية ، ومن الأطباء الذين ظهروا هنالك أبو العـــلاء بـــن زهر ، وابنه عبد الملك صاحب كتاب التيسير ، وكتاب الأغذيـــة في الطب . وممن ظهروا في الرياضة والطب ابن الصائغ ومـــن علماء الهندسة الحافظ أبو الوليد ، وقد وجدت كثرة من علماء الأندلس لم تقتنع بالتخصص في علم أو فن فدرسوا وتبحروا في علوم مختلفة .

وفـــي الفن القصصي : اشتهرت قصتا " التوابع والزوابع " و" حي بن يقظـــان " فـــي المشرق وفي أوروبا ، بل إنهما ترجمتا إلى عدة لغات

أوربية . **وفي الموشحات** : استحسنها أهل المشرق وصاروا ينزعون منزعها ، وقد تذوقها أهل أوروبا فظهرت لديهم أشعار على منوالها.
وفـــي المعاجم اللغوية : فقد كانت معاجم الأفعال تعتبر جهوداً أندلسية رائـــدة ، وعلامة بارزة ، فإلى " ابن قوطية " تنسب هذه الريادة ، إذ فـــتح بابـــاً جديـــداً تابعه بعده تلامذته مثل أبي عثمان السرقسي وابن القطـــاع وغيرهما . وفي **فن الشروح والحواشي للكتب الأدبية** : قد أســـهم عدد كبير من لغويي الأندلس في هذه الظاهرة ، فرفدوا الثقافة العربية الإسلامية بالعديد من الكتب والمؤلفات ، التي تعد مصادرَ في بابها . ولاهتمامهم بهذا الفن ، فإنه يُحكى أن مجموعة قد رأوا رجلاً طويـــلاً فقال أحدهم: لو رآه (ابن ليون) لاختصره ، وفي ذلك إشارة إلى كثرة اختصاره للكتب!
وفـــي أدب الرحلات : أسهم عدد من أعلام الأندلس في هذا اللون من الأدب مـــثل العـــذري والـــبكري ، ومحمد الغرناطي ، وابن جبير ، ومحمـــد الزهري ، وابن سعيد ، وكان ابن سعيد من أظرفهم في هذا المجال ، قال يصف دروب القاهرة الترابية ذات الغبار الدقيق :[١].

لقيتُ بمصر أشدَّ البـــوار	ركوب الحمير وكحل الغبـــار
وخلفي مكاري يفوق الرياح	ولا يعرف الرفق مهما استطار
أناديه مهلاً فلا يـــرعوي	إلى أن سجدت سجود العفار
وقد حدَّ خوفي رواق الثرى	والحدُّ فيها ضياء النَّـــهار

وعـــلى الرغم من أن النصارى حين استولوا على الأندلس ودمروا ما فيها من التراث الإسلامي والعربي ، فقد سلم من حرائقهم بعض ذلك التراث ولم يزل مبعثراً في مكتبات أوروبا وإسبانيا .

---

(1) مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية د.عبد الله بن ثقفان ص ٢٥٤ـــ ٢٥٥ .

الباب الثاني

أحوال الأدب الأندلسي

الفصل الأول:

أحوال الشعر وسماته

الشعر الأندلسي وسماته :

كـل مـا في الأندلس كان باعثاً على الشعر ، يدعو إليه ، ويلح عليه ؛ فرغد الحياة موفور ، والنعمة كثيرة والرزق ميسور والرياض غـن ، والجبال خضر ، والأودية معشبة ، والأشجار مورقة والطيور مغـردة والجو صاف والهواء عليل ... ومع ذلك ظل الشعر ملازماً للطابع القديم دون تغيير ، أو ظل الشعراء الأندلسيون محافظين في أغراضـهم وفـنونهم على ما عهدناه عند شعراء المشرق ــ وجلُّ ما هـناك من جديد في هذا الصدد ، بعض محاولات ملحمية غير موفقة كأرجوزة ابن عبد ربه التي وصف فيها غزوات عبد الرحمن الناصر وفـتوحه ، وهـي تبـلغ أربعمائة وخمسين بيتاً إلا أن قيمتها الشعرية ضـئيلة فهي أقرب إلى التاريخ منها إلى الشعر ــ وذلك ؛ لأن الولاة قد شغلوا بادئ الأمر بتوطيد ملكهم والقضاء على الفتن .

ويمكن أن نستخلص سمات الشعر الأندلسي مما يأتي :

ظـل الشـعر الأندلسـي في(عصر الولاة) مقلداً للشعر في العصر الأموي ، وليس له من الأندلسية إلا أنه قيل في الأندلس .

ولعل من أهم سمات الشعر الأندلسي أن أسلوبه في معظمه عذب رقيق وكـأن طبيعة الأندلس الجميلة قد انعكست على ألفاظهم رقة وعذوبة إلى درجة السفساف ، بيد أن الشعر خلت معانيه من عمق الفكرة وبعد الغور ، لا يلمح في صوره نصيب من تحليق الأخيلة ، وإنما هو أميل إلى البداوة وأقرب إلى الخشونة مناسباً لطبيعة الناس حينئذ .

ثـم كانت عناية (ملوك الطوائف) بالشعر والآداب والثقافة أكثر من عـناية خـلفاء بني أمية كثيرا ، فكانت قرطبة (مركز الخلافة) قبلة الشعراء والعلماء ، وكان تنافس الحكام على الظفر بكل شخصية لامعة لا يقل عن تنافسهم السياسي فيما بينهم .

ولذا لم يعد الشعر مجرد تقليد للشرق بل أصبح مستجيباً لحياة المجتمع الجديـــد صادق التعبير، فرأينا أول جيل من أدباء الأندلس الحقيقيين ، وكذا أديبات أندلسيات ، ولم يعد الاشتغال بالأدب قاصراً على الشعب بـــل شـــاركهم الخـــلفاء ، ولم يقف جهد الخلفاء عند التشجيع أو عقد المناظرات بل كان منهم شعراء يقرضون الشعر ، ويتذوقون حلاوته ، كعبد الرحمن الداخل وبنيه [1] فكان بذلك: أولى سمات الأدب الأندلسي

أغـــراض الشعر وفنونه : وعلى الرغم من محاكاتهم للشرق طويلا ، فقد أظهر الشعراء الأندلسيون خصائص وسمات تميزهم عن سواهم ، في بعض الأغراض الشعرية ، على النحو التالي :

١ـــ **الوصف** : وقد أكثروا منه ، وبخاصة مشاهد الكون ومجالس اللهو وحياة القصور وما فيها من الولائم والمآكل والزينة والعطور والأقمشة والموســيقى والرقص والمجون ، حتى أننا نستطيع أن نستخلص من شــعرهم صـــورة واضحة للحياة الأندلسية في شتى نواحيها . حيث وصــفوا متــنزهاتها وعجائب عمارتها ، وأودبتها وجبالها ورياضها وأزهارهـــا وثمارها ، وربيعها وشتاءَها ، ووصفوا بحيراتها وسواقيها وأنهارها ، كما وصفوا الصناعات ، والمعارك والجيوش .

وفـــُتن الشعراء بجمال الأنهار تنساب بين البساتين ، وتلقي في النفس غبطة وروحاً ، ومن ذلك قول ابن خفاجة في وصف نهر :[2]

للـــــــه نهرٌ سَال في بطحـــــاء أشهي وُروداً من لُمَى الحسناء
متعطفٌ ُمثلَ الســـِّوار كأنــــــه والزهرُ يكنُفُه مَجَرُّ سمـــــاء
قد رقَّ حتى ظُن قرصاً مُفرغـــاً من فضةٍ في بردةٍ خضـــــراء

---

[1] راجع أدب الحكام في : قلائد العقيان في ترجمة أبي الفضل بن حسْداى ، للفتح بن خاقان ، وابن حسداي كان وزيراً للمؤتمن والمستعين من ملوك الطوائف ، وكان يهوديا وأسلم .
(راجع المنتخب من أدب العرب ج٣ ط وزارة المعارف العمومية سنة ١٩٤٩م .)

[2] ديوانـــه ص/ ١١ ط دار صـــادر .والـــبطحاء:المسيل الواسع .اللمى: ســُمرة مستحبة في الشفاه. يكنفه يحيط به . شبــّه النهر والأزهار حوله بالمجرّة تحف بها النجوم .

وغدت تحفّ به الغصون كأنها هُدب يحُف بمقلةٍ زرقاء [1]
والريح تعبثُ بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وبعد أن كان العرب ينفرون من البحر ويخشون غوائله ، راح شعراء الأندلس يصفون السفن الجارية فيه كما فعل أبو عمر القسطلي ، وابن خفاجة ، وابن الآبار ، وابن وهبون .

وانبرى كل شاعر يصف إقليمه وجمال الديار التي عاش فيها ، فكان ابن زيدون شاعر قرطبة وزهرائها ، وأبو الحسن بن نزار وناهض بن إدريس شاعرا وادي" آش "، وأغرم " مطرف " بغرناطة وابن سفر المريني بإشبيلية ، وابن الزقاق ببلنسية ، ورسم غيرهم صوراً لوادي عذراء ، وجبل طارق ، وجزيرة ميورقة ، وطليطلة وغيره .

٢ـ الغربة والحنين :

جُبل الإنسان على انتمائه لأرضه التي ولد فوقها والبيئة الأولى التي عاش فيها ، وإن تمرّغ في النعيم بعيداً عنها ، ولله درُّ أبي تمّام حين قال :

نَقِلْ فؤادك حيث شئتَ من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول
وكم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأولِ منزلِ

وظاهرة الغربة والحنين والبوح بهما قديمة قدم الشعر والرحيل ، إذ ما خلا شعر عصر من توجع الغربة أو الاشتياق .. حتى أصبح الرحيل من المعاني المشتركة بين الشعراء ـ على امتداد تاريخ الشعر ـ ومادة دراسات مختلفة المناهج ، ولا يتميز شاعر على آخر إلا بجودة المعاني وحسن الصياغة .

---

[1] الهُدب : شعر الأجفان . شبه مياه النهر بقرص مفرغ من الفضة وشبه ما يحيط به من النبات بثوب أخضر ، وذهب الأصيل : أصيل كالذهب وهو تشبيه لوقت الأصيل (مابين العصر والمغرب) بالذهب يشر إلى اصفرار أشعة الشمس الضاربة في الماء ، ولجين الماء أي ماء كاللجين .

وكذلك الحال بالنسبة لأدباء الأندلس ، فعلى الرغم من سحر تلك البلاد وتشجيع خلفائهم على قرض الشعر ، ومشاركتهم إياهم في قرضه وروايته وتذوقه ـــ كما ذكرنا ـــ على الرغم من ذلك كله ، لم ينس العرب بلادهم الأولى ، بل ظلوا متعلقين بها ، محافظين على التراث القديم ، متعطشين إلى الوطن ، نرى هذا النزوع ـــ على سبيل المثال ـــ في حنين عبد الرحمن الداخل إلى وطنه ، وتحميله الركبان أشواقه وحسبان نفسه غريباً في الأندلس ؛ نرى ذلك حينما سمَّى قصره بالرُصافة على اسم قصر جده ، متخذاً من النخلة التي أهديت له شاهداً ماثلا فزرعها في قصره ، فأثارت شجونه ، فأنشد قائلا : [١]

تبدَّت لنا وسط الرُصافة نخلةٌ ۞
تناءتْ بأرض الغرب عن بلد النخل

نشأتِ بأرضٍ أنت فيها غريبة ۞
فمثلكِ في الإبقاء والمنتأى مثلي

ويتضح هذا الحنين كغرض شعري عند كثيرين مثل " ابن خفاجة الأندلسي " [٢] و" أبي الوليد أحمد بن زيدون" [٣]أما ابن خفاجة فقد أفاض فيه وأجاد ، وحسبنا من القلادة ما أحاط بالعنق . فهو يندب

---

(1) راجع تاريخ الأدب العربي حنا الفاخوري ط بيروت ص ٧٩٧ وما بعده .

(2) هو أبو إسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة ولد سنة ٤٥٠ هـ في بلدة شُقَر من أعمال بَلَنسية وتوفي بها سنة ٥٣٣هـ أي أنه عاش في أواخر عصر بني أمية زمن ملوك الخلافة وإبان دولة المرابطين (٤٨٤ـ ٥٣١هـ) وشُقَر بضم الشين وسكون القاف بليدة بين شاطبة وبَلَنسية ، وإنما قيل لها جزيرة لأن الماء محيط بها .(راجع ديوانه ص/٥ ط/ ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م دار صادر بيروت . ولنا معه وقفة في الباب الثالث من هذا الكتاب

(3) سيأتي التعريف به ولنا معه أكثر من وقفة أيضاً ، لفضله وغزارة نتاجه .

عهـــده بشقر ، وتتمزق نفسه حسرات على ما كان له فيه من أحبة ، فيقول [١]

سجعتُ وقد غنَّى الحمام فرجَّعا — وما كنتُ لولا أن يغنِّي لأسجعا
وأندبُ عهداً بالمشقَّرِ سالفاً — وظِلَّ غمامٍ للصبا قد تقشَّعــــا
ولم أدر ما نبكي :أرسمَ شبيبةٍ — عفا أم مصيفاً من سُليمى ومربعا
وأوجَعُ توديعِ الأحبةِ فُرقـــــةً — شبابٌ على رُغمِ الأحبةِ ودَّعــا
زمانٌ تقضَّى غير عهدِ محاسنٍ — تسوم حصاة القلب أن تتصدَّعــا
تحوَّلت عنه لا اختياراً ، وربما — وَجعتُ على طول التلدد أخدعا[٢]
وقد فاتَ ذاك العهدُ إلا تذكــراً — لو اني علي ظهر المطيِّ توجُعا

فـــابن خفاجة قد وظـــَّف بعض عناصر الطبيعة الحية لتجسيد الأسى، كما استخدم الحمام هذا المخلوق رمز السلام ، مثلما استخدمه كثير من الشـــعراء مـــنذ أبي فراس الذي جسَّد معاني الأسى واللوعة والغربة والحنين في إحدى رومياته: [٣]

وسجعتُ أندب لوعة ولربما ۞ صدعُ الحمامِ يجيبني فتعلَّما

وكـــان ابن زيدون [٤] شاعراً مرهفَ الحس ، رقيق الجدان تقلبت به أحـــداث السياســـة ، وأذكـــت عواطفه مشاعر الحب ، وكان قد تعلق

---

(1) ديوان ابن خفاجة ط دار صادر بيروت ص ١٦١ .

(2) التلدد: التلفت يميناً وشمالاً . الأخدع : شعبة من الوريد وهو عرق في العنق .

(3) ديوان أبي فراس ص/٢٨٣ .

(4) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون الملقب بذي الوزارتين ، ولد بقرطبة سنة ٣٩٤ هـــ وشب على يد علمائها وأدبائها أديباً مطبوعا ، صار وزيراً لأبي الحزم بن جوهر أحد مـــلوك الطوائف ، كما اتصل بعد ذلك بالمعتضد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١هـــ فأسند إلية كل أمور الدولة ، ومن أبرزأحداث حياته تعلقه بولادة بنت المستكفي إحدى شهيرات عصرها في الأدب والشعر والمناظرة وقد وقعت بينهما قطيعة ثم عادت . توفي سنة ٤٦٣ هـــ

بـــولادة بـــنت المستكفــي ، أحد خلفاء بني أمية بالأندلس ، ثم حدث بينهما قطيعة ، فبعث إليها بقصيدة يبث فيها حنينه وشوقه ، ومنها :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنــتم وبنا فما ابتلت جوانحنا ... شوقاً إليكم ، ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمـــائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تآسينا
حالت لفقدكـــمُ أيامنا فغـــدتْ ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

و الأبيـــات قـــد صورت حسرته على أسباب القطيعة ، والتي أصابته بحرقة في قلبه لا تبترد ، ودموعاً منهمرة لا تنقطع ...
وقـــد أعجـــب الشـــعراء والنقاد في المشرق والمغرب بهذه القصيدة فعارضها كثير منهم ، ولما نفي أحمد شوقي إلى أسبانيا ــ موطن ابن زيدون ــ استوحى نونيته فأنشأ قصيدته الشهيرة ، ومطلعها :

يا نائح الطّلح أشباهٌ عوادينا ... نأسى لواديكَ أم تأسى لوادينا ؟

<u>٣ــ رثـــاء الممـالك الزائدة :</u> هي من الأغراض الشعرية التي تعزى للأندلسيين ؛ لكثرتها ، وقد كان لهذا الشعر الباكي أسباب كثيرة أهمها: كثرة وثوب أصحاب البلاد الأصليين على عرب الأندلس كلما واتتهم الفرصـــة لا نـــتزاع الممـــالك من بين أيديهم ، والعمل على أن تعود الممالك سيرتها الأولى ؛ ولهذا راح هؤلاء ، يثيرون الفتن والانقلابات كما كان النصارى الأوربيون المتربصون بالعرب والإسلام يساندونهم ويشـــاركونهم في الحروب ، ويقتطعون البلاد ، ويستردون أجزاءها ، حتى عادت إلى سلطانهم . وكان العرب لا حول لهم ولا قوة أمام تلك الهـــزائم المـــتكررة سوى البكاء ، والرثاء لتلك الممالك الزائلة ، فما سقطت دولة أو أشرفت على السقوط إلا ووقف الشعراء على أطلالها

يـــندبون عـــزَّها الحائل ومجدها الزائل ، ويتأملون في صروف الأيام التي لا تبقي على أحد
وقد مرَّ بنا أن دولة المرابطين بالمغرب (٤٨٤ـــ ٥٣٩هـــ)(١٠٩١ـــ ١١٤٤م) قـــد امـــتدت نفوذهـــا إلى الأندلس وانتزعت الحكم من بني الأفطـــس أصـــحاب بَطَلْيَوْس ، وكان ابن عبدون الأندلسي شاعر بني الأفطس ووفيا لهم ، فلما تغلبت عليهم دولة المرابطين هاجت الفاجعة عاطفته فرثاهم بقصيدة منها:

الدهر يَفجعُ بعد العين بالأثـــــر   فما البكاءُ على الأشباح والصوَر؟
فلا تغرنك من دنياك نومتهـــــا   فما صناعةُ عينيها ســـوى السهر
بني المظفر، والأيامُ ما برحـــت   مراحلاً والورى منها على سفر
مَنْ للأسرة ؟ أو مَنْ للأعنة ؟ أو   مَن للسماحة ؟ أو للنفع والضرر ؟
كانوا رواسيَ أرض الله منذُ مضَوْا   عنها ، استطارت بمن فيها ولم تقِر
على الفضائل ، إلا الصبرَ بعدهمُ   ســـلامُ مرتقبٍ للأجر منتظـــرِ

وكما رثا ابن عبدون لدولة بني الأفطس ، من ملوك الطوائف ، بكى ابـــن اللـــبانة على دولة بني عباد ، وكذلك ندب أبو البقاء الرُّندي حظ قرطبة بعد أن استردها الإسبان .!
فهذا أبو بكر بن اللبانة ، يرثي لدولة بني عباد ، بقصيدة حارة ، فيها يقول :

تبكي السماء بمزن رائح غـــادي   على البهالـــيل من أبنـــاء عباد[١]
على الجبال التي هدَّت قـــواعدها   وكانت الأرض منهم ذات أوتاد

---

[1] البهاليل : السادة ، المفرد بهلول والمزن : السحاب يحمل الماء

إن يُخلعوا فبنو العباس قد خُلعوا وقد خلتْ قبلَ حمص أرضَ بغدادِ
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخٍ من مفداةٍ ومن فادي
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبل يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دمعٍ وكم حملت
تلك الفظائع من قطعات أكبادِ

أما الرُندي [1] فقد مزج رثاءه بالحكمة والموعظة ، فكان مما قال:

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسانُ
هي الأمور كما شاهدتها دول من سرَّه زمن ساءته أزمان
تبكي الحنيفة البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمانُ
على ديار من الإسلام خاليةٍ قد أقفرت ولها بالكفر عمران
ياغافلاً وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنهُ أَبَعْدَ حمصٍ تُغر المرءَ أوطانُ ؟
تلك المصيبة أنست ماتقدمها وما لها من طويل الدهر نسيان
لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمان

وقَدْسجَّل صاحبُ ظهر الإسلام تفوق الأندلسيين في هذا المضمار، ويشير إلى أن بغداد قد أصابها ما أصابها على أيدي التتار فلم يبكها أحد بمثل هذا الشعر الصادق ! ونلاحظ هنا أن الرثاء اختلط بالتاريخ والفلسفة كما اختلط بالحكمة والموعظة ، وقد اعتمدوا فيهاعلى المحسنات البديعية والمجازات البلاغية ، كما هو واضح في الأمثلة .

---

[1] أبو البقاء صالح بن شريف الرندي ، ولد بمدينة رُندة (حصن بالأندلس) سنة ٦٠١هـ ونسب إليها ، شاعر رقيق حسن الديباجة توفي سنة ٦٩٨هـ .

٤ــ التوسل بالرسول(ص) واستنجاد حكام البلاد :

وشــعر الاستنجاد والاستشفاع هو وليد الضعف في البلاد ، والخوف من الأعداء . فقد فزع الشعراء إلي الأولياء يستشفعونهم وإلي الأعوان يســتنجدون بهم . ومن أشهر قصائدهم في هذا الباب قصيدة الوقشي البلَــنسي التي مطلعها :

أبتْ غير ماءٍ بالنخيل ورودا ۞ وهامت به عذب الجمام برودا

والقصــيدة التي بعث بها لسان الدين بن الخطيب إلى قبر النبي محمد (ص) ، ومطلعها :

إذا فاتني ظلُ الحِمى ونعيمُه ۞ فحسْب فؤادي أن يهُب نسيمُه

ومن ذلك أيضا : قصيدة أبو عبد الله القضاعي الأندلسي يستغيث فيها بصــاحب إفريقيا أبي زكريا بن أبي حفص ، للدفاع عن بلنسية ومنها قوله :

أدركْ بخيلك خيل الله أندلســا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست
فلم يزل منك عزُّ النصر ملتمسا

٥ــ نظــم العلوم والفنون : ليس الأندلسيون أول من نظم في العلوم والفــنون ، فقد سبقهم إلى ذلك المشارقة ، ولكن الأندلسيين أكثروا ، و كان لهم السبق والغلبة في هذا المضمار ، وقد قصدوا إليه ؛ لتسهيل حفــظ العلوم ، فنظموا في النحو والصرف والعروض والبديع والفقه والــتاريخ ومــن ذلــك أرجوزتا ابن عبد ربه في العروض والتاريخ واللامية والرائية للشاطبي في القراءات ورسم المصحف .

فمن أرجوزة ابن عبد ربه في التاريخ قوله :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلــس

فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس

ونحيــلك عــلى ألفية ابن مالك في النحو والصرف ، ولامية الشاطبي ورائيته في القراءات ورسم المصحف .

النزعة القصصية : وقد ظهرت في الشعر الأندلسي النزعة القصصية الــتي تسـتقري تاريخ الموصوف ، وتنهج نهج الحوار وهو نوع من التطور الشعري . نراه في شعر أبي عثمان جعفر بن محمد المصحفي وهــو يــتأمل ثمرة سفرجل ، فيتتبع وصفها من حين كانت تختال بين الغصــون حــتى ذبلت ،فينسج صورة محبوكة النسج ويبثها شيئا من لوعة الحب وشكوى الصب بما يعكس سلوك المجتمع الأندلسي آنذاك، فيقول : [1]

ومصفرَّةٍ تختال في ثوب نرجسٍ وتعبَقُ عن مسكٍ زكي التَّــنفُّسِ

لها ريح محبوبٍ وقوةُ قلبــهِ ولون مُحبّ حلة الــسُّقم مكتسي

فصفرتها من صفرتي مستــعارة وأنفاسها في الطيب أنفاس مؤنسيِ

وكان لها ثوبٌ من الزَّغب أغــبرٌ على جسم مصفرٍ من التبر أملــسِ

فلما استتمَّت في القضيب شبابــها وحاكت لها الأوراقُ أثوابَ سندسي

مددتُ يدي باللطف أبغي اجتناءها لأجعلها ريحــانتي وسط مجلسي

ولما تعرتْ في يدي من برودهــا ولم تبق إلا في غلالة نرجــسِ

ذكرتُ بها مَــن لا أبوحُ بذكــرهِ فــأذبلها في الكفِّ حرُّ التنفس

و نجــد عند " ابن خفاجة" مثل هذه المحاولات القصصية في قصيدته (بــرقع الثــلج) [٢] وهــي محــولات بدائيــة لم تكتمل فيها العناصر القصصية .

---

[1] حنا الفاخوري ص/ ٨٠٠

[2] انظر الديوان ص ٣٣

أما بقية الأغراض الشعرية الأخرى: فيمكن القول بأن حياة الترف والــرفاهية قــد ساعدت على تطورها وتنوعها أيضاً ، كازدهار شعر الغــزل عــلي يــد ابــن زيدون ، وتطور الخمريات ، ، كما سجلت الموشــحات نهضـــة هائلة ، واستقرت تقاليد النظم فيها ، كما ازدهر الشعر الصوفي ، ومن أعلامه محي الدين ابن عربي (٦٨٣هـــ)

فـــإذا وصلنا إلى العصر الغرناطي وجدنا الشعر يلفظ أنفاسه وأصبح مجـــرد اجترار للماضي يعيدون صياغة أسلافهم ولا يكادون يضيفون إليهـــا إلا بعـــض الـــزخارف اللفظية والمحسنات البديعية اللهم بعض ومضـــات قليـــلة عـــلي يـــد ابن زمرك ، وأبو الحسن الجياب ومن عاصرهما.

ومما سبق يمكن أن نخلص إلى ما يأتي :[١]

أولا : بـــدأ شـــعر الأندلـــس تقـــليدياً وظل حتى نهاية العصر الأموي بـــالأندلس ، يظهر ذلك عند ابن عبد ربه ، وابن هانئ ، وابن شُهيد . وابن درَّاج القسطلي ، وشعراء تلك الحقبة ، فأسلوبهم شرقية ومعانيهم فـــي أكـــثرها أموية. فإذا مدحوا عُنوا بالاستهلال ، والتزموا الغزل ، ووصـــفوا الفـــلاة والناقة والجواد ولفح الهاجرة ، وحنُّوا إلى البادية ، وإن لم يستفيضوا في ذلك . نرى شيئاً من ذلك في قصيدة لابن الدراج القســطلي ، الـــتي مـــدح بها الحاجب المنصور بن أبي عامر ، وهو يعـــارض رائية أبي نواس في مدح الخصيب ، وهو يصف سفره بعد وداع زوجته ، قال :

ولو شاهدتني ، والهواجر تلتظي علَيَّ ورقـــــراق السَّراب يمورُ [٢]

---

[١] الأدب الأندلسي حنا الفاخوري ص ٧٩٦ومابعده

[2] المرجع السابق . الهواجر :ج هاجرة وهي شدة القيظ في نصف النهار . الرقراق : ما يتلألأ . يمور: يتحرك .

أسلط حرَّ الهاجرات إذا سـطا على حر وجهي والأصـيل هَجيرُ
وأستنشق النكباء وهي لواقـح وأستوطئ الرَّمضاء وهي تفورُ (٢)

ثانياً : كان الشعر الأندلسي شديد الشبه **بالشعر العباسي** ، في **أغراضه وفنونه :** فهي نفس الأغراض القديمة ،كان ذلك من نتائج منافسة الأندلسيين للمشارقة ، فاتخذ شعرهم صبغة الشعر العباسي ، ثم توسعوا في الوصف ورثاء الممالك البائدة والشكوى والاستنجاد ونظم العلوم والفنون . **كما ظهر التجديد** في الغزل والمجون والخمر ووصف الطبيعة والعمران ، وبقي التقليد مسيطراً على الأبواب الأخرى ، ثوبها التقليدي المشرقي .

ثالثاً : بدأ التحرر في القرن الحادي عشر (الخامس للهجرة) فأخذ الشعراء يمثلون بيئتهم الجديدة ، ونزعات نفوسهم من غير أن يهملوا التقليد إهمالا تاماً ، وتتمثل تلك النزعة الانتقالية ، أومن أعلام هذا الشعر الانتقالي ابن زيدون ، وابن عمار : والمعتمد بن عباد ..
وكان من أهم أسباب هذا التطور: تعلق الشعراء بالوطن الجديد وجماله الفاتن ، كما أن الشرق الذي ما برحوا يقلدونه ، قد تغيَّر هو أيضاً بدافع الانقلاب العباسي وما رافقه من تطور في النظم والعادات والأخلاق والثقافة .
وقد بلغ شعر التجديد الذي يمثل البيئة الأندلسية ، مداه في القرن الثاني عشر (السادس للهجرة) نجده عند ابن حمديس وابن عبدون وابن

---

[2] النكباء: الريح التي تنحرف عن مهاب الرياح القُوَّم فتقع بين ريحين . اللافح: الريح المحرقة . الرمضاء الأرض الحامية من شدة الحر . تفور: تغلي .

خفاجة ولسان الدين ابن الخطيب . وكان من مظاهر هذا التحرر تعلق الشعراء ببيئتهم الجديدة ، وتفضيلهم إياها على غيرها بعد أن كان هواهم عالقاً بالوطن القديم الذي نزحوا عنه . قال ابن سفر المريني :

في أرض أندلس تلتذ نعماءُ ولا تفارق فيها القلبَ سراءُ
وكيف لا تبهج الأبصارَ رؤيتها وكل روضٍ بها في الوشي صنعاء[١]
أنهارها فضة والمسك تربتها والخزُ روضتها والدرُّ حصباء

رابعاً : جاءت معاني الأندلسيين: دون معاني المشارقة عمقاً ، وليس من الغريب أن تفوت الأندلسيين الدقة في الفكر والعمق في المعنى ، فإنهم لم يقتبسوا من الفلسفة والمنطق ما اقتبسه المشارقة ، فمعانيهم واضحة جلية إلا أنها سطحية . وتبدو هذه الظاهرة في حِكَمهم التي قصّروا فيها تقصيراً فاضحاً عن أبي تمام والمتنبي وغيرهما ، واجتزأوا فيها بما تعرفه العامة ، ولا يقتضي بعد تفكير.

خامساً : خيال الأندلسيين : هو أكثر إصباغاً من خيال المشارقة ، وهو غالباً رقيق لطيف يتجلى في أوصافهم وغزلهم حيث تزدحم الصور البراقة المنتزعة من طبيعة غنية بالجمال ، تُسكب في مخيلة الشاعر فيبرزه لنا في حلة قشيبة ، وحياة نابضة ورونق عجيب لا يخلو من ميوعة وكلام موقع توقيعاً موسيقياً لا يخلو من تصنع كثير

ورياض من الشقائق أضحت يتهادى بها نسيم الرياح
زرتها والغمام يجلد منها زهراتٍ تفوق لون الرّاح

فإذا ما أراد ابن الزقاق مثلاً أن يصف رياضاً تلطم شقائقها الرياح والغمام قال : (٢)

---

(1) صنعاء : قصبة في بلاد اليمن اشتهرت بصناعة الأقمشة المزخرفة .
(2) الشعر الأندلسي حنا الفاخوري ص/ ٨٠٣ .

قلتُ ماذنبها ؟ فقال مجـــــــيباً   سرقتْ حُمرة الخدودِ المِلاحِ

وإذا ما عمد ابن سفر المريني إلى وصف المدّ والجزر في نهر إشبيلية أبدى ذلك في صورة مبتكرة يشخص فيها النسيم والنهر ، فيقول :[1]

شقَّ النسيمُ عليه جيبَ قميـــصهِ   فانسابَ من شطّيه يطلب ثـــأرَهُ
فتضاحكت وُرْقُ الحمام بدوحها   هُزُءاً فضم الحـــــــياء إزارَهُ

وقد لاحظنا غلبة فن الوصف ، وأنهم قد نوَّعوا الأوصاف ، وتوسعوا فيهـــا ولكنها بقيت — في مجملها — صور جزئية غير منتظمة لمشهد برمته ثم كانت النزعة القصصية التي تستقري تاريخ الموصوف .

سادساً : لغة الأندلسيين : هي دون لغة المشارقة في عمومها ، حيث كـــانت سهلة غير محكمة البناء كلفة أهل المشرق ، وما ذلك إلا لبعد صـــقع الأندلس عن البادية ، ولوجود العرب في بيئة أعجمية أضعفت ملكتهم ورققت تعبيراتهم ، ولئن كان هناك بعض الصعوبة ، ففي شعر ابـــن هـــانئ الـــذي رمى إلى تقـــليد المتنبي فانصرف إلي الإغراب والإمعان في الخشونة والتعقيد في كثير من الكلمات .

ســـابعاً : أما الأوزان الشعرية : فقد تتبع الأندلسيون فيها أهل الشرق فـــي أكثر الأحيان إلى الموسيقيِّ منها ، كما أضافوا إليها أوزاناً جديدة أوحـــت بهـــا إليهـــم الموسيقي الشائعة في بلادهم وهداهم إليها ولعهم بالغـــناء فكان عندهم الموشحات ،وبعض الفنون الأخرى ، وسنعرض لها بالتفصيل.

۞۞۞۞۞۞

---

[1] المرجع السابق ص/ ٨٠٣

الموشحات الأندلسية :

التعريف بالموشح : ورد في اللغة : وشح الخطيب خطبته بالآيات : زيَّنها بها وشَّح المرأة : ألبسها الوشاح ، وهو قلادة من نسيج عريض مرصَّــع بالجوهر تشدُّه المرأة بين عاتقيها وكشحيها ؛. وقد استعيرت الــلفظة للدلالة على الفن من الشعر المسمى بهذا الاسم(الموشح) لما فيــه من تزيين وتنميق ، فكأنهم شبهوه بوشاح المرأة المرصع باللؤلؤ والجوهر .

واصــطلاحاً : كلام منظوم على وزن مخصوص ، يتألف في الأكثر مــن ستة أقفال وخمسة أبيات ، ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع .(١)

بناء الموشحة :

مــن تعريف *الموشحة* يتضح لنا أجزاؤها ، وبالمثال يتضح لنا الشكل العام لها ، يقول الأعمى التطيلي : (٢)

ضــاحكٌ عــن جُمــان ، سافر عن بدر ، ضاق عنه الزمان ، وحواه صدري .

آه مما أجـــد	شفني ما أجـد
قام بي وقعـــد	باطشي منتـــد
كلما قلت: قد	قال لي أين قـــد

وانثنى خوط بان ، ذا مهزٍّ نَضْر ، عابثتْه يدان ، للصبا والقَطْر

قوله : ضاحك إلى آخر السطر (قفل) والقفل في أول الموشحة يسمى مطــلع . وقد يبدأالموشح بدون هذا المطلع ويمى أقرع . وهذا المطلع (القفــل) في المثال المذكور مكون من أربعة أجزاء ، وغالباً ما يتكون من جزءين ، وقد يصل إلى أحد عشر جزءاً

---

(1) الأدب الأندلسي د مصطفى للشكعة ص ٣٧٤ط دار العلم للملايين .

(2) راجع مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العدد العاشر، دكتور سيد ديب ص٣٧٤ ــ ١٤٦

وقوله : آه مما أجد   شفني ما أجد ـــــــ يسمى (سمط)
وقوله: قام بي وقعد   باطش متئـد ـــــــ يسمى (سمط)
وقوله : كلما قلت قد   قال لي أين قد ـــــــ يسمى (سمط)

وكل سمط يتكون هنا من جزئين ، وجميع الأجزاء ذات روي متحد ، ومجموع الأسماط مكتملة تسمى الدور أو الغصن .

وقولـه : وانثـنى خوط بان ، ذا مهز نضن ..إلي آخره (قفل آخر) ، وهو مكون من أربعة أجزاء مثل القفل الأول تماماً ، ويسمى كل جزء (غصـناً) ــ عـلى اخـتلاف بين بعض الباحثين ــ إذا لم يسم الدور (غصـناً) . ويسـمى الدور مع القفل الذي يليه بيتاً . أما القفل الأخير فيسمى (خرجة) .

وهذا مثال آخر ، نطبق عليه أجزاء الموشح : يقول ابن زُهر : [١]

فُتـِقَ المسك بكافور الصباح [٢] ووشتْ بالروض أعرافُ الرياح[٣]

فاسـقِنيـها قبل نور ِالفلَق
وغناء الـوُرْق بين الوَرَق
كاحمرار الشمس عند الشفق

---

(١) دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك المصري المتوفى (٦٠٨هـ) تحقيق د. جودت الركابي ، ص/ ٤٣ .ط / دمشق ١٩٤٩م .

وابـن زهر هـو/ أبو بكر محمد بن عبد الملك الإشبيلي ، ولد في أشبيلية عام ٥٠٧هـ وتوفي بروضة الأمراء في مدينة مراكش سنة ٥٩٥هـ ، نعى نفسه قبل موته بأبيات أوصى أن تكتب على قبره وهي :

تأمل بحقـك يا واقـفاً   ولا حـظْ مكاناً دُفعنا إليهِ
ترابُ الضريحِ على وجنتيَّ   كأنيَ لم أمشِ يومـاً عليهِ
أداوي الأنامَ حِذارَ المنـون   وها أنا قد صرتُ رهناً عليهِ

(2) فـاحت رائحـته : اختـلطت بـرائحة الكـافور ، والكافور : الطلع حين ينشق وتخرج منهاالرائحة الطيبة .

(3) الأعراف : ج عَرف ، وهي الرائحة الطيبة المنبعثة من الروض .

نسج المزجُ عليها حين لاح فُـلكَ اللهو وشمسَ الاصطباحِ
وغزالٍ سامني بالمـــلقِ
وبَرَى جِسمي وأذكَى حُرَقي
أهْيفٍ مذ سل سيف الحَدَقِ
قصَّرت عنه أنابيب الرماحِ وثنى الذُعر مشاهيرَ الصِفاح
صار الدَّل فـؤادي كلفـــاً
وجفونٍ ساحراتٍ وطَفَــا
كلما قلتُ جوى الحب انطفا
أمرَضَ القلبَ بأجفانٍ صحاح وسبى العقلَ بجدٍ ومزاحِ
يوسُفيُّ الحسنِ عذبُ المبتسَمِ
قمريُّ الوجهِ ليليُّ الـلِّمم
عنتري البأسِ علويُ الهمم
غُصنيُ القدِّ مهضوم الوشاحِ مارديُ الوصل طائي السماح
قدَّ بالقدِّ فــؤادي هيْفا
وسبى عقلي لما انعطفا
ليته بالوصل أحيا دنــفا
مستطار العقل مقصوص الجناح ما عليه في هواه من جُناح
يا عليُ أنت نور المُقـــــل
جُــد بوصلٍ منك لي يا أملي
كم أغنــيِّكَ إذا ما لحــت لي
طرقتُ والليل ممدودُ الجناح مرحباً بالشمس من غير صباحِ

۞۞۞۞۞۞

ونعود لأجزاء الموشح فنراها تتكون من الآتي :

١ــ **المطـلع أو المذهـب :** وهو القفل الأول من الموشحة ، ويتألف غالــباً من شطرين ، وأحياناً تكون أربعة أشطر ، كما مرَّ في موشحة

الأعـــمى التطيـــلي ، أما المطلع هنا فمكون من شطرين أو غصنين ، ونلاحظ هنا اتفاق قافية الغصنين ، في موشحة ابن زهر :

فتق المسك بكافور الصباح ۞ ووشت بالروض أعراف الرياح

وقد تختلف كما هو الحال ، كما في موشحة ابن مهلهل :

النهر سلَّ حُساما على قدود الغصون

ومـــن عادة الموشح : أن يتردد فيه القفل ست مرات ، فإن كان الأمر كذلك سمي تاماً ، وإن بدأ الموشح بغير مطلع سمي بالموشح الأقرع ، أي أن القفـــل يـــتردد ست مرات في الموشح التام وخمس مرات في الموشـــح الأقرع ، وهذا يعني أن المطلع ليس ضرورياً في الموشح . على أن يكون البيت الأول في الموشح الأقرع هو المطلع .

٢- الدور : ويقصد به ما يلي المطلع من أشطر ، كما في موشحة ابن زهر :

فاسقنيها قبل نـــور الفلـــق
وغناء الوُرْق بين الـــوَرَق
كاحمرار الشمس عند الشفق

وكذلك في موشحة ابن مهلهل قوله :

وللنســـيم مجال
والروض فيه اختيال
مـــدت عليه ظلال

و الـــدور يتكون من : مجموعة من الأشطر لا تقل عن ثلاثة غالباً ، ولا مـــانع مـــن أن تزيد بشرط أن تتكرر بنفس العدد في كل دور من أدوار الموشـــح ، وأن تكون من وزن المطلع ـــ إن وجد ـــ على أن تختلف قافية كل دور .

وأدوار الموشـــح الغـــنائي تتكرر خمسة أدوار غالباً ، أما الموشحات الشـــعرية فلا قيد عليها في عدد الأدوار ، فقد بلغت عشرة أدوار في موشحة ، لسان الدين ابن الخطيب ، والتي أولها :

جادك الغيث إذا الغيث همى	يا زمان الوصل بالأندلسِ
لم يكن وصلُك إلا حُلُمــا	في الكَرى أو خِلسة المختلسِ

٣ـ السمط : اسم اصطلاحي لكل شطر من أشطر الدور ، وقد يتكون مـــن فقرة واحدة ، كما هو الحال في موشحة ابن مهلهل ، وقد يتكون من فقرتين كما هو الحال في موشحة ، ابن زهر ، وقد يكون أكثر من فقرتين ، كقول عبادة القزاز ، المتوفى حوالي سنة ٤٢٢هـــ :

بدرٌ تم . شمس ضحى . غصن نقا . مسك شمْ
ما أتــم . ما أوضحـــا . ما أورقا . ما أنــمْ
لا جَرَمْ . من لمَحَــــا . قد عشِــقا . قد حــُرِمْ

فقد تكوَّن الدورعند " القزاز " من ثلاثة أسماط ، كل منها أربع فقرات. إلا أنـــه يشـــترط في التي تزيد على فقرتين أن يلتزم الوشاح بالقوافي الداخلية لكل سمط ، وإلا عـــُدَّ عيبا فنيا.

٤ـ القــــُفل : وهو ما يلي الدور مباشرة ، وهو بيت أو أكثر ، وهو الجــزء المتكرر في الموشحة والمتفق مع القفل الأول (المطلع) ـ إن وُجد ـ ومن المهم أن تتفق أقفال الموشحة كلها في الوزن والقافية ، وعـــدد أجزائه ، وأبياته ؛ وذلك لتكون ذات موسيقى لفظية واحدة ، ولحن واحد . والقفل هنا ، في موشحة ابن زُهر هو:

نسج المزج عليها حين لاح	فلـــكَ اللهو وشمسَ الاصْطباح

وهو في موشحة ابن مهلهل ، قوله :

والزهرُ شـــقَّ كماما ۞ وجْداً بتلك اللحون

والقفـــل لا يكـــون أقل من جزأين ، وقد تبلغ أجزاؤه الثمانية وقد تبلغ أكثر من ذلك ، كما قلنا سابقا ، إلا أن ذلك نادر .

القفل المركب من جزأين:

شمسٌ قارنت بدرا راحٌ ونديم

القفل المركب من ثلاثة أجزاء :

حلَّتْ يدُ الأمطار أزرَّةَ النوّار فياخذني

القفل المركب من أربعة أجزاء :

أدرْ لنا أكــوابْ يُنسى بها الوجدُ

واستحضِرِ الجُلاس كما اقتضى الــوُدُّ

القفل المركب من خمسة أجزاء :

يامن أجود ويبخــلُ علي شحِيَ وافتقاري ، أهواك

وعنـدي زيـادة ، منها شوقي وأذكاري .. الخ

٥- البيت : في الموشَّحة غيره في القصيدة ، فبيت القصيدة : هو شطران : صدر وعجز ، ينخرط ضمن قصيدة على بحر واحد. أما في الموشحة : فهو ما نظم بين القفلين من أبيات شعرية. أو هو الدور مضافاً إليه القفل الذي يليه ، والبيت هنا في موشحة ابن زُهر هو :

فاسقنيها قبل نور الفلـق

وغناء الوُرْق بين الوَرَق

كاحمرار الشمس عند الشفق

نسج المزج عليها حين لاح فُلْكَ اللهو وشمسَ الاصطباح.

والبيت في موشحة ابن مهلهل :

وللنســيم مجال .

والروض فيه اختيال

مدت عليــه ظلال

والزَّهر شـقَّ كماما وجْداً بتلك اللحون

ويشترط في الأبيات أن تكون متماثلة وزناً ونظماً وعدد أجزاء . أما الروي فيحسن تنويعه . وقد يتكون البيت من جزءين وهو نادر وقد يكون من ثلاثة أجزاء ونصف ، وهذا لا يكون إلا فيما أجزاؤه مركبة ومثال المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء ونصف :

من أودع الأجفان صوارم الهند
وأنبت الريحان في صفحة الخد
قضى على الهيمان بالدمع والسُّهد
أنى وللكتمان ؟

٦- الغصن : هو الجزء الواحد من أجزاء الدور ، وقد يكون هذا الجزء مفرداً ، وقد يكون مركباً من فقرتين أو ثلاث أو أربع ، ولا يتجاوز ذلك إلا نادرا ، فإذاكانت مركبة فلابد أن تتحد قوافيها الداخلية ، كما يشترط أن تتساوي الأغصان عددا وترتيباً وقافية في كل دور ، وقلما يشذ الوشَّاح عن هذا . والغصن في الدور الأول من موشحة ابن زُهر هو :

فاسقنيها قبل نور الفلق

فأذا سرنا إلى آخر الموشحة لوجدنا آخر غصن هو :

كم أغنَّيك إذا ما لحت لي

أي أن الغصن الأول متفق مع الغصنين في الدور الأول في الوزن والقافية وعدد الأجزاء وكذلك بقية الأغصان حتى آخر غصن مع الاختلاف في القافية فقط في كل دور ، وهذا هو الغالب والأفضل .

٧- الخرجة : هي القفل الأخير من الموشح . والفارق بين المطلع والأقفال والخرجة ، أن المطلع غير ملتزم به في الموشح كجزء أساسي في بنائه ، فهو إن وجد فالموشح تام ، وإلا فهو الأقرع . أما القفل والخارجة فهمّا جزءان أساسيان في بناء الموشح .

۞۞۞۞۞۞

ويمكن توضيح الأجزاء بالرسم :

غصن ــــ ــــ غصن (القفل الأول) - المطلع

ــــــ سمط

ــــــ سمط الدور (أو الغصن)

ــــــ سمط

غصن ــــ ــــ غصن - (قفل) بيت ...خرجه

۞۞۞۞۞۞

الخرجة على مستوى التنظير :

يباح في الخرجة ما لايباح في بقية الأقفال ، وقد قسمها ابن سناء الملك ثلاثة أنواع : **(أ) فصيحة الألفاظ :**

يقول عنها ابن سناء : " فإن كانت معربة الألفاظ منسوجة على منوال ما تقدمها من الأبيات والأقفال خرج الموشح من أن يكون موشحاً . اللهم إلا إن كان موشح مدح وذكر الممدوح في الخرجة فإنه يحسن أن تكون الخرجة معربة كقول ابن بقي :

إنما يحيي سليل الكرام واحد الدنيا ومعنيٌّ الأنام

وقد تكون الخرجة معربة وإن لم يكن فيها اسم الممدوح ولكن بشرط أن تكون ألفاظها غزلة جداً هزازة سحارة خلابة ، بينها وبين الصبابة قرابة وهذا معجز معوز وما يوجد منه في الموشحات سوى موشحين أو ثلاثة كقول ابن بَقِي :

ليلٌ طويل وما معين يا قلب بعض الناس أما تلين !

فمن قدر أن يقول هذا فليُعرب أو فليغرُب " [١]

والبيت الأخير من الموشح يؤدي دائماً وظيفة الخروج أو الانتقال ، وما يشبه حسن التخلص في الانتقال من غرض إلى غرض في القصيدة

---

(1) دار الطراز ص ٤١ .

الشعرية وسبيل ذلك في الموشح ، كما قال ابن سناء " ولابد في البيت الذي قبل الخرجة من قال أو قلت أو غنيت أو غنت " فهذه الألفاظ قنطرة أو معبر ننتقل به من صميم الموشح إلى الخرجة ، ويعدها " ستيرن " إشارة ذكية من ابن سناء [1]

(ب) **عامية اللفظ :**

" والشرط فيها أن تكون والشرط فيها أن تكون حجَّاجية من قِبل السُّخف ، قُزمانية من قبل اللحن ، حارة محرقة ، حادة منضحة ، من ألفاظ العامة ولغات الداصّة " .[2]

فالخرجة العامية تستمد من ألفاظ العامة والسوقة ولغات اللصوص والسفلة من الناس ؛ وذلك على سبيل التظرف والمجون الزائد والغرابة اللافتة للنظر ، ومن أمثلتها موشح أبي العباس أحمد بن عبد الله المعروف بالتطيلي الضرير :

يارب ما أصبرني　　نرى حبيب قلبي　ونعشقو
لو كان يكون سنة　　فيمن لقى خِلُو　يعنُقو

وتنزع الخرجات العامية عادة إلي الكلمات المفردة فتحولها إلى العامية ، وذلك بوسائل منها : [3]

- تسكين أواخر الكلمات (سافرْ بدلاً من سافرَ)
- إلحاق زوائد بالفعل كنون الجمع المتكلم في أوله وواو الجماعة في آخره ، نعشقو ، نعملو .

---

[1] حولية كلية اللغة العربية في جرجا عدد٣ د عبادة ابراهيم سعيد ص ٦٢٧ .عن الموشحات الأندلسية ــ ستيرن ــ ص٦٦

[2] حجاجية : نسبة إلى أبي عبد الله بن حجاج المتوفى سنة ٣٩١هـ وهو شاعر بغدادي ماجن مائل للهزل . قزمانية : نسبة إلى قزمان المتوفى سنة ٥٥هـ الزجال الأندلسي القرطبي المشهور الذي يكتب بالعامية . الداصة : اللصوص والأفاقين والرعاع .

[3] راجع حولية كلية اللغة العربية بجرجا العدد الثالث ١٩٩٩م د. عبادة ابرهيم أحمد سعيد ص٦٢٣ ــ٦٣٥ والأدب الأندلسي ، حبنا الفاخوري ٨٠٩ ، والأمثلة عن دار الطراز لابن سناء الملك ص ٣٠ ومابعده .

- تغييرات صوتية في النطق مثل (رايتك في رأيتك)
- إطالة بعض الأصوات مثل (ماعو في معه ، سايطول في سيطول ، ساتنسى في ستنسى ساتدري في ستدري)
- إضافة كلمات عامية مثل : عيان أي مريض
وربما كانت الخرجة العامية من أسباب انصراف الناس عن المشحات لما تحمل من صياغة مخالفة حيث تكثر فيها العامية والأعجمية .

و قد يسمع أحدنا موشحاً فيطرب ،لأول وهلة ، ولكنه عندما يستعيد النظر ليتعمق في تحليله وتذوق أفكاره لا يقع منه إلا على الطافي المكرور . وقد يقع في صوره الغموض من كثرة الصناعة اللفظية أو سقم التعبير . وإنك عبثاً تنشد فيها تلاحماً في المعاني أو ارتباطاً في الأفكار ، بل ترى الشاعر يتقلب بين صور مختلفة إيحائيةٍ تساير النعم ، وهذا حسبها .

(ج) **<u>خرجة أعجمية الألفاظ :</u>**

ويقول عنها ابن سناء : " وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضاً في العجى سفسافاً نفطياً .." ومنها موشحة الأعمى التطيلي " دمع سفوح " والتي ختمت بقوله :

مولى تجنى وجفا واستطال
غادرني رهن أسى واعتلال
ثم شدا بين الهوى والدلال

والخرجة : هو الحبيب انفرم ذي مو أمر
كن دشير تنفس أميب كسد نوا يغر

ومعناه : حبيبي مريض بسبب الحب ، وكيف لا يكون ذلك ؟ ألا ترى أنه لن يرجع إليَّ أبدا "
وتكون كما قال ابن سناء: قولاً مستعاراً على بعض الألسنة إما ألسنة الناطق أو الصامت ، وأكثر ما تُجعل على ألسنة الصبيان والنسوان

والسكرى والسكران. ولا بد في البيت الذي قبل الخرجة من : قال أو قلت أو غنّى أو غنّيت ، فمما جعل على لسان الحمام قول عبادة :

إن الحمام في أيكها تشدو

قل هل عُلمْ أو هل عُهد أو كان كالمعتصم والمعتضد ملكان

ومما جعل على لسان الغرام قول ابن بقي :

أنا وأنتا أسوةُ هذا الهجر

بالصبر بتنا عند انصداع الفجر

ومدّ رحلتا غنّى الجوى في صدري

سافر حبيبي سَحَرْ وما ودعتو ياوحش قلبي

في الليل إذا افتكرتو[١]

الخرجة على مستوى الألفاظ :

لاحظنا فيما سبق أنها : لابد أن تكون سهلة الألفاظ غزلة خلابة ويجوز أن يأتي بها الوشاح بلغة عربية فصيحة ويجوز أن يأتي بها ملحونة ، وقد تبلغ من البساطة حداً يجعلها أقرب إلى الحديث العادي وقد تأتي بمفردات أعجمية من اللغة الإسبانية القديمة . ولشيوع العامية في الموشح شيوعاً كبيراً ، قال ابن شهيد (ت٤٢٦هـ) متكلما على عصره : ليس لسيبويه فيه عمل ، ولا للفراهيدي إليه طريق " [٢]

الخرجة على مستوى التأليف :

يباح للوشاح أن تكون الخرجة من إبداعه ، أو أن يستعيرها من أقوال غيره إما بالنص ، وإما بتصرف رغبة في مطابقة المعنى أو طلباً للإبداع الفني أو أن يستعيرها من الأغاني الشعبية أو العربية .

أما على مستوى المعنى : فلابد أن تتسم الخرجة بالخصائص المحلية التي تعبر عن البيئة وروح الجماعة وأن تكون قريبة المعاني ،

---

(1) دار الطراز ص٤٢ وحنا الفاخوري ص ٨١٠ ، ومجلة اللغة العربية بجرجا ص٦٣٠

(2) الذخيرة لابن بسام ، القسم الأول رسالة التوابع والزوابع ج١ ص ٢٢٩ .

ويفضل أن تكون غزلـة ، فكه ، يباح في معناها أن يخالف ما تعارف عليه الغزل العربي ، بأن تبدو الفتاة فيها هي التي تتغزل بالرجل وهي الطالبة لا المطلوبة ، وإذا عدنا إلى موشحة ابن زهر نراها قد تناغمت مع الأحكام العامة للخرجة ، فهي من ناحية الألفاظ سهلة واضحة بسيطة غزلة خلابة ، وإن كانت بلغة عربية فصيحة ، وهي من تأليف الوشاح نفسه . أما المعنى : فهو دال على ما يباح في الخرجات من كون الفتاة هي الطالبة لا المطلوبة ، فهي التي جاءت وطرقت ليلاً ، ولم يذهب هو إليها ، وذلك المعنى إنما يتسم بالخصائص المحلية آنذاك ويخالف ما تعارف عليه الغزل العربي بصفة عامة ، كما مهَّد ابن زهر للخرجة في الدور الأخير وفي آخر غصن فيها بقوله : أغنِّيك وهو لفظ دال على الإنشاد والغناء الموسيقي .

وهكذا يبدو تناغم ابن زهر الواضح مع التقاليد الأدبية المتعارف عليها في فن الموشحات . [1]

نشأة الموشحة :

فن الموشحة مدين لأرض الأندلس منذ أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أيام حكم عبد الله بن محمد المرواني ، وفيها ازدهرت الموسيقى وشاع الغناء والترف من جانب ، وقوي احتكاك العنصر العربي بالعنصر الإسباني من جانب آخر . فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولاً ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانيا .

أما كونها استجابة لحاجة فنية ، فبيانه : أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء منذ أن قدم عليها " زرياب " .. ويبدوا أن الأندلسيين كانوا قد أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة إزاء الألحان المنوعة وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم أمام النغم في حاضره التجديدي المَرن ، ومن هنا ظهر هذا الفن الذي تتنوع فيه الأوزان

---

[1] راجع أشكال الإبداع د. جلال أبو زيد ص ٦٨ ــ ٦٩ .

وتتعدد فيه القوافي والذي تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه . وأما كون الموشحات جاءت نيجة لظاهرة اجتماعية ، فبيانه : أن العرب امتزجوا بالإسبان ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج ، أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية ، كما عرف العامية العربية .. وكان لابد أن ينشأ نتيجة لهذا الازدواج أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية فكانت الموشحات ، وكان هذا الفتح الجليل في الشعر العربي (١).

مخترع الموشحة وأهم رجالها :

قال ابن خلدون ت ٨٠٨هـ : " وأما أهل الأندلس ، فلما كثر الشعر في قطرهم وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً سمَّوه بالموشح ينظمونه أسماطاً أسماطاً ، وأغصاناً أغصاناً.. " إلى أن يقول : " وكان المخترع له بجزيرة الأندلس : مقدَّم بن معافر القبْري ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني ، وأخذ ذلك عنه أبو عبد أحمد بن عبد ربه صاحب العِقد الفريد ، ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر ، وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا : عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صادح صاحب المرِيْة " . (٢)

لقد أشار ابن خلدون إلى أن ابن معافر القبري المخترع الحقيقي لهذا الفن ، وإن لم تذكر الكتب التي تحدثت عنه نماذج لموشحاته .. كما ذكر هو ومؤرخو الأدب أن من بين المتقدمين في هذا الفن : ابن عبد ربه صاحب العقد ، إلا أننا نقف إلى جانب من تشكك في هذا القول ، إذ لو كان ابن عبد ربه من الوشاحين يقيناً لتمثل ببعض نتاجه في كتابه العقد ،

---

(1) راجع الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة د. أحمد هيكل ، ص/١٤٣ ، ط/٧ دار المعارف بمصر .

(2) مقدمة ابن خلدون ط دار القلم بيروت ص /٥٨٣

إلا إذا وجد الرجل في الموشح انحطاطاً أو انحرافاً على أعاريض الشعر العربي فنزّه كتابه عنه (١).

وشاع هذا النوع من الشعر وتعاطاه جمهرة من الشعراء كأبي بكر بن زهر (١١١٣- ١١٩ م) وابن بقِيّ (١١٤٥) والأعمى التطيلي (ت ٥٢٠) وابن سهل الإشبيلي (١٢٠٨- ١٢٥١م) والمتوفى (٦٤٩هـ) وابن الخطيب (١٣١٣- ١٣٧٤) وابن زمْرك(١٣٣٣ - ١٣٨٩) ولما اتصل الموشح بالشرق نبغ فيه ابن سناء الملك المصري وصفي الدين الحلّي ، وابن نباته الفارقي ، وابن حجة الحموي وغيرهم .

دوافع الظهور :

كان من أسباب اختراع هذا الفن اختلاط العرب بالأجانب في إسبانيا واطلاعهم على آدابهم وأغانيهم الشعبية المتحررة من القوافي والأوزان وميل الشرق إلى الانطلاق من القيود الموروثة.

ولا يمكن أن نستبعد أثر أناشيد التروبادور " (٢) في تنبيه العرب إلي استنباط الموشح ، وإطلاق شعرهم من القيود القديمة ليصبح أداةً طيِّعةً للغناء . فلا مراء أن مطالب الموسيقي كانت العامل الأكبر في إيجاد الموشح . والموسيقي في الأندلس مطربة الأمراء ، ورفيقة الأفراح ، ومؤنسة اللهو وليالي السمر .

---

(1) القبري نسبة إلي بلدة قبرة الأندلسية . راجع مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة العددالعشر ص١٨٠ .

(2) هـم شعراء مغنون من العصور الوسطى الأوربية الذين وجدوا في أواخر القرن ١١م في جنوب فرنسا أولا ثم اشتهروا في غالية وأسبانيا ثم أثروا بشعرهم وما يحتوي عليه من نواحي فـنية ومعانٍ في الشعر الأوروبي كله حتى القرن ١٤م . حيث كانوا يطوفون من بلد إلى بلد ومـن قصر إلى قصر يتغنون بأناشيد الغرام وقصص الفروسية ، كما كانوا يعيشون في بلاط الملوك والأمراء ويتغنون بالحب على نحوَ يخضع فيه المحب لحبيبته ويعبر عن سلطانها عليه وإن ظـل معظمـه في دائرة الغزل الحسي . (راجع الأدب المقارن ، د/ غنيمي هلال ص ٢٦٣)

فلا عجب أن تهيب الموسيقي بالشعراء إلي مجاراة رنّاتها وإخضاع قصائدهم إلي أنغامها وألحانها ، ولو أدي بهم ذلك إلي الخروج عما تعوَّدوه . وكم من موشح نقرأه فلا توقظ فينا ألفاظه لذة ، ولا يحدث فينا وزنه هزة ، فهو للتلحين لا للإنشاد .

<u>أغراضها</u> : أوجد الموشح ، أول الأمر للغناء وكان من أغراضه **الغزل والخمر والمجون ووصف الطبيعة** . ولما كانت أبهي مواسم الغناء تعقد في بلاطات الملوك والأمراء والأعيان ، تطرق الشعراء إلي المدح استدراراً للأكف وطمعاً في نيل الهبات . وما لبثوا أن توسعوا في معاني الموشحات ، فنظموها في المدح والهجاء والرثاء والتصوف والزهد ، وغير ذلك . وفي غالب الأحيان يجتمع في الموشح الواحد أغراض عدة أغراض كالغزل والمدح ووصف الطبيعة . كما في موشح ابن زَمرك الذي مطلعه :

أبلغْ لغرناطة سلامي	وصف لها عهدي السليم
فلو رعى طيفها ذمامي	ما بتُّ في ليلةِ السَّليم[١]

أما وصف الطبيعة فهو كثير جداً يتناول جمالات الأندلس بأنواعها من النهر إلى الزهر إلي الطير ، كما في أغراض الشعر .

والطبيعة في عرف أصحاب الموشحات هي حبيبة يُتغزل بمحاسنها ويتشوق القلب إلى لقائها ، فيشخصها الشاعر ، ويجعل فيها عاطفة وشعوراً ويسمع أحاديثها . قال ابن الخطيب :

فإذا الماء تناجى والحصى	وخلا كلُّ خليلٍ بأخيهِ
تبصرُ الورد غيوراً بَرِماً	يكتسي من غيظه ما يكتسي
وترى الآسَ لبيباً فَهِماً	يسرق السَّمع بأذني فرسِ

---

(1) العهد السليم :الثابت . و الذمام : ج ذمة وهي العهد . السليم : الذي لدغته الحية أو الجريح المشرف على الموت ، وليلة السليم هي التي لا يُنام فيها .

فقد جعل الشاعر بين الماء والحصى مناجاة يغار منها الورد فيلبس من غيرته حمرة ، أما الآس فهو كاللبيب المتيقظ لاستماع الأخبار .
وإذا أراد بن زمرك أن يصف لنا الفجر والبرق والغيث صوَّر الصباح كفارس يغير على الكواكب ، فتخاف منه ، والليل الجموح يطلق أعنة البرق والأفق ، يغص بالمطر ، قال :

فالشُّهب من غارة الصباحْ ... تُرعد خوفاً وتخفقُ
وأدهمُ الليلِ في جِمَاحْ ... أعنَّة البرقِ يُطلقُ
والأفق في ملتقى الرياح ... بأدمع الغيثِ يشرقُ

أثر الموشحات :

كان للموشحات أثر كبير في الأوساط الأدبية ، فما عرف فنها حتى تناقلها الناس بعد أن تغنى بها المغنون ، وليس هناك أسيَرَ من الغناء إذا حسُن ، فطافت الأندلس والمغرب ومصر ، وكان كلما ظهر موشح مستحب تبارى الشعراء في مجاراته ومعارضته . وكان من نتائج انتشار الموشح بلغته السهلة وأوزانه المختلفة وقوافيه المتعددة وملاءمته للغناء أن انبعث أدب جديد هو الزجل العامي [١] لمن لا يحسنون اللغة الفصحى يعبرون به عن عواطفهم ، ويتغنون به في مواسمهم . وعاد الشعراء المحدثون إلى الموشح ، فكان لهم في تحرير أوزانه وقوافيه مساعداً على نظم الروايات التمثيلية ، والقصائد الملحمية ، فكان فضل الموشح من هذا القبيل جسيما ، إذ يخول الشعر العربي من السهولة والطواعية ما يجعله كفيلاً بالتعبير عن كل معنى، والإحاطة بكل فن من الفنون التي تتجلى في الشعر الأجنبي . فالموشحات وإن لم تحدث ثورة في الأوضاع القديمة من حيث التفكير والشعور، فقد كانت فتحاً مبيناً في الأدب العربي [٢]

---

[1] سمي الزجل زجلاً : لترجيع الصوت به في الإنشاد .
[2] الشعر الأندلس حنا الفاخوري بتصرف .

أصل الموشحات وأوزانها:

يــرى الدكــتور أحمد هيكل ، أن الموشحات بنيت على أغنيات أندلســية محــلية ، واستوحت بعض أغاني الأندلسيين الشعبية التي لم يسـجلها المؤرخــون ، والمعقول أن تكون منوعة القافية وقد نظمت بالعاميــة.. وأن مخترع الموشحات إنما أفاد من هذه الأغنيات . وأيد قولــه بــأن العادة جرت بين الوشاحين على أن يمهدوا للخرجة بمثل قولهــم : " غــنت ".[1] ويــرى الدكتور عبد العزيز الأهواني ما رآه الدكتور هيكل ويستدل على ذلك بالجزء الأخير فيها ، وهو الخرجة ، فيــرى أن هــذا الجزء كفيل بأن يرشدنا إلى أصل الموشحات ، فلغته عاميــة مــلحونة أو أعجميــة لا يلــتزم فيه ما يلتزم في سائر أقفال الموشحة ، وأغصانها من إعراب وسلامة لغوية ، وأن اشتراط العامية أو العجميــة في الخرجة لم يكن أمراً مستحدثا ، وإنما هو أصل قديم نشــأ مــع الموشحة يوم نشأت ، مما يؤكد أن هذه الخرجات قطع من أغــان شعبية تتسم بما تتسم به الأغنية الشعبية من بساطة وسذاجة ، ومــن خصائص محلية تعبر عن البيئة وروح الجماعة ، وأنها في لغة أســبانية قديمة كانت تعيش في بيوت الأندلسيين المسلمين على ألسنة النســاء مــع الجواري القشتاليات ومع الأسيرات من النساء اللاتي لم ينقطع سيلهن عن جنوبي أسبانيا نتيجة للحروب المتصلة .[2]

وليس ببعيد أن يكون زرياب [3] قد اطلع على المخمسات والمسمَّطات وهــو ببغداد ثم غناها في الأندلس ؛ لأنها أسهل بسبب تنوعِ القافية .

---

(1) د. أحمد هيكل ص/ ١٤٩ .

(2) الزجل في الأندلس د/ عبد العزيز الأهواني ص/ ٥

(3) هو أبو الحسن بن نافع مولى الخليفة المهدي العباسي قدم إلى الأندلس من بغداد سنة ٢٠٦ هـــ زاد وتــراً خامساً من أوتار العود، واتخذ من قوادم النسور مضراباً مرهفا ، اتخذ من قصور المترفين من الملوك مدرسة ، ومن أولي الحناجر الذهبية طلاباً ومن الشباب والشبات

فكانت أصلا للموشحات . والمتأمل في الموشحات يلحظ تشابها ظاهراً بينها وبين المخمسات والمسمطات المشرقية من حيث البناء ،

فالمخمسة : (١) تبتدئ بأربعة أشطر بقافية واحدة ثم تأتي الشطرة الخامسة بقافية أخرى ، تلتزم في كل شطرة ختامية كقول ابن زيدون يتشوق إلى ولادة :

سقى الله أطلال الأحبة بالحمَى   وحاك عليها ثوب وشي منمنما
وأطلع فيها للأزاهر أنجمـا   فكم رفلتْ فيها الخرائد كالدُّمَى
إذ العيش غضٌ والزمان غلام

أهيم بجبار يعزُّ وأخضع   شذا المسك من أدرانه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجوى ليس يسمع   فما أنا في شيئ من الوصل أطمع
ولا أن يزور المقلتين نسام

أما الشعر المسمَّط : فهو الذي يكون في صدر البيت أبيات مشطورة ، تجمعها قافية مخالفة لازمة حتى تنقضي القصيدة ، وصدر كل قصيدة مصراعان[٢] متفقا القافية ، كقول امرئ القيس[٣] :

توهمتُ من هندٍ معالمَ أطلالِ
عفاهن طول الدهر في الومن الخالي
مرابع من هندٍ خلت ومصايفُ
يصيحُ بمغناها صدىً وعوارفُ
وغيرها هوجُ الرياح العواصف

والحرائر والإماء تابعين ، لايتورع عن مجالسه القضا والأعيان (الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير د/ رجب البيومي ص/ ٩٤ ط ١٩٨٠م .)

(1) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير د. رجب البيومي ص ١٠٩ط جامعة الإمام بالسعودية

(2) المصراع الأول من البيت صدره ، والمصراع الآخر عجزه والجزء الأخير من من المصراع الأول هو عروض البيت والجزء الأخير من المصراع الثاني يسمى الضرب وفيما عدا هذين يسمى الحشو .

(3) لسان العرب مادة سمط ٢٠٩٣/ ط دار المعارف .

ولعل هذا ما حدا بالدكتور ابراهيم أنيس ، لأن يقول : " وليست الموشحات ، قبل تلحينها إلا نوعاً من الشعر المسَــمَّط " (١)
ومن هذه الآراء ندرك أن أصل الموشحات الأندلسية كان صدى للشعر المشــرقي من حيث المخمسات والمسمَّطات . أو تطوراً عنها ، ماعدا الجزء الأخير(الخرجة) الذي انطلق من البيئة وألفاظها المحلية .
وكان أول من أشار إلى أوزان الموشحات : هو ابن بسام الشنتريني المتوفى سنة ٥٤٢هـــ) حين صرَّح بأن " أكثرها على غير أعاريض العرب" (٢)
وهذا حق كما يبدو لمن يرجع إلى موشحات العصر الآموي والطائفي والمرابطي ، فحكم ابن بسام لا ينصب إلا على موشحات هذه العصور الثلاث لأنه توفي في نهاية عصر المرابطين .. سنة ٥٤١هـــ
ثـــم جاء ابن سناء الملك ـــ الأديب المشرقي المتوفى سنة ٦٠٨هـــ ـــ فاطَّــــلع مـــن بعـــد ابـــن بسام على أكثر نسبة من موشحات عصر الموحدين وانتهى إلى قوله :(٣):" والموشحات تتقسم قسمين : الأول ما جـــاء على أوزان أشعار العرب ، والثاني ما لا وزن له فيها ولا إلمام له بها والذي على أوزان الأشعار ينقسم قسمين : أحدهما ما لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج به تلك الفقرة التي جاءت فيها تلك الكلمة عن الوزن الشعري وما كان من الموشحات على هذا النسج فهو المرزول المخـــذول ، ولا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء .. والقسم الثاني : من الموشـــحات هو ما لا مدخل لشيء منه في شيء من أوزان العرب ، وهـــذا القسم منها هو الكثير والجم الغفير .. وكنت أردت أن أقيم لها

---

(1) موسيقى الشعر د/ ابرهيم أنيس ص/ ٢٨٨ .

(2) الذخيـــرة ، لابن بسام ، القسم الأول مجلد /١ ص/ ٤٧٠ ، تحقيق د/ احسان عبد القدوس ط/ دار الثقافة بيروت لبنان .

(3) راجع من فنون الأدب الأندلسي د/ محمد حسين عبد الحليم ص/ ١٠٥ ، ١٠٦ط/ ١٩٨٦م و دار الطراز لابن سناء الملك ص/ ٣٣ـــ ٣٥ .

عروضـــا يكـــون دفـــتراً لحسابها وميزاناً لأوتادها وأسبابها فعزَّ ذلك وأعوز لخروجها عن الحصر ".

وحكـــم ابن سناء الملك على هذا النوع من الموشحات بأنه " المرزول المخـــذول ...الخ" غير مقبول عندنا [١]، فأروع الموشحات الأندلسية جـــاء مـــن هـــذا النوع الموافق لأوزان العرب ، فموشحة ابن زهر الأشبيلي ، التي مطلعها :

أيها الساقي إليك المشتكى   قد دعوناك ، وإن لم تسمعِ

من بحر الرمل . وموشحتا ابن سهل :

هل درى ظبيُ الحمى أن قد حمى   قلبَ صبٍ حلَّه عن مِكنَسي

وابن الخطيب :

جادك الغيث إذا الغيثُ همى   يا زمان الوصل بالأندلس

اللـــتان شرَّقتا وغربتا وطارت شهرتهما في كل مكان من بحر الرمل أيضاً . وكذا موشحة أمير الشعراء أحمد شوقي " صقر قريش " التي نظمها على نهج موشحتي ابن سهل ، وابن الخطيب :

مَن لِنضْوٍ يتنزَّى ألما   برَّح الشوقُ به في الـــغَـــلَـــسِ

وموشحة أبي الحسن علي بن محمد بن الفضل المتوفى سنة ٦٢٧هـــ:

فوا حسرتا لزمانٍ مضى   عشيَّة بان الهوى وانقضى

مـــن بحر المتقارب .. وهكذا يتبين لنا أن أروع الموشحات جاء من هـــذا الـــنوع الموافق لأزان العرب مما يجعلنا نرفض حكم ابن سناء الملك عليه بأنه " مرزول مخذول " [٢]. وليس معنى هذا أن ابن سناء المـــلك مجانب للصواب ، فحكمه كان صادقاً وصحيحاً في زمنه لأنه حكم على ما رآه وقرأه وسمعه من الموشحات التي نظمت في عصر الدولة الأموية بالأندلس وعصر ملوك الطوائف والمرابطين والنصف

---

(1) من فنون الأدب الأندلسي ص/١٠٧

(2) المرجع السابق ص/ ١٠٩ وديوان الموشحات الأندلسية ، تحقيق د/سيد غازي .ج٢/ ١٤٣

الأول من عصر الموحدين . أما الموشحات التي نظمت بعد ذلك وتشمل الموشحات في النصف الثاني من عصر الموحدين والعصر الغرناطي والموشحات المشرقية التي نظمت بعد ابن سناء الملك حتى العصر الحديث فأكثرها موافق لأوزان العرب كما يبدو لقارئها .[١]

على أن بعض أصحاب الموشحات ـــ ولاسيما في العصر الغرناطي ـــ غالى في استعمال المحسنات اللفظية وتكلّفوا البديع يغشّون بها سخف المعاني فحفل شعرهم بالمجاز والتشابيه والاستعارات والكنايات مما جعل **لغتها** ركيكة ، ولاعجب في ذلك والأندلسيون ليسوا من العرب الخلّص ، ولا هُم في البيئة العربية المحضة . والغناء يتطلب ألفاظاً ليّنة بعيدة عن التعقيد وكثيراً ما قادهم ذلك إلى الخروج على قواعد اللغة والشرود في سبل العامة .

وهكذا أحدثت الموشحات بالأندلس أكبر ثورة أدبية ، حين أوجدت جنساً شعرياً مغايراً لبناء القصيدة العربية في الشرق ، فكانت بمثابة التمرد على قيود القصيدة العربية ،وفتحت باب التجديد في الشعر ؛ ولذا حاول بعضهم اختراع أوزان جديدة ، وفنون أخرى غنائية . !

۞۞۞۞۞۞

<u>الفنون الشعرية الجديدة</u>

وعلى غرار نشأت الموشحة وعلى أثرها نشأ :

(الدوبيت ، والسلسلة ، والمواليا، والزجل ، وكان وكان ، والقوما)[٢]

<u>١ـــ الدوبيت :</u> [٣](الرباعي) وهو ضرب من الموشحات يؤخذ في

---

(1) المرجع السابق ، ص/ ١١٢ .

(2) راجع تطور الشعر في الغناء العربي غطاس عبد الملك خشبة ، ص ٤٤ـــ ٥١ سلسلة كتابك رقم/ ١٠٤ ط/ دار المعارف .

(3) **كلمة فارسية ، مكونة من " دو " ، " بيت " والدوبيت : فيه خمسة أعاريض وسبعة** أضرب . راجع محاولات للتجديد في إيقاع الشعر د/ أحمد كشك ص/٥٧ط/ ١ ١٩٨٥م .

بيتين على وزن الدوبيت عند الفرس ، قال ابن غازي :

دُوبَيْــتُهُم عــرُوضُه تــرْتجلُ   فعلن متفاعلن فعولن فعِلُ

وهو تام ومجزوء ، الأول مثل :

ياغُصْنَ نقاً مكللاً بالذهبِ   أفديكَ مِنَ الرردَّى بأمي وأبي

إن كنتُ أسأتُ في هواكم أدبي   فالعصمة لا تكــون إلا لنبي

ومثال المجزوء قول الباء زهير المتوفى سنة ٦٥٦هـ

يامن لعبتْ به شَمول   ما أحسنَ هذه الشمائلْ

نشوانُ يَهُــزُّه دلالُ   كالغصن مع النسيم مائل

وأوزان الدوبيت جميعاً يسميها العرب : بحر السّلسلة.

٢- السَّــلســلة : وهي من مشتقات الرباعي ، المسمى الدوبيت غير أنه يوزن على :

(فــعِــلُن فعِلاتن مستفعلن فعِلاتان) مرتين ويجوز حذف السين من (مستفعلن) فتنتقل إلى (مفاعلن) ومثاله :

السِّحرُ بعينيك ما تحرك أو جالْ   إلا ورماني من الغرام بأوحــالْ

ياقامة غصنٍ نشا بروضةِ إحسان   أيَّــان هفت نَسمة الدلال به مالْ

٣- المواليــا : (المــوَّال) : وهو ضرب من الموشحات إلا أنه أردأ أنواعــه ولا يلتزم فيه كثير بالإعراب ، وقد بدا في القديم على هيئة الــرباعي ، ثــم تطور إلى العامية ، ودخل عليه الجناس اللفظي في عروضه وضربه حتى صار هذان من مميزاته . والأصل فيه من بحر البسيط إلا أن له أضربا تخرجه عنه ، وفي (المزهر للسيوطي) أن أول مــن قالــه جواري البرامكة ، وأول موَّال نطقت به جارية منهن ترثي مولاها . (١)

وجاء في مقدمة الإليادة في أصل المواليا أقوال : أشهرها : أن هارون الرشــيد أمر بعد نكبة البرامكة أن لا يرثيهم أحد بشعر ، فرثت إحدى

---

(1) تطور الشعر في الغناء العربي ، ص ٤٥ وما بعده .

جواريهم جعفراً بشعر غير معرب حتى لا يعد شعراً ، وجعلت تقول بعد كل شطر : يا مواليا ، قالت :

يا دارُ أين ملوك الأرض أين الفرسْ
أين الذين حَمُوها بالقنا والتُّرسْ
قالت رمماً نراهم تحت الأراضي دُرسْ
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خُرسْ

هذا الذي يقوله المؤرخون في أصل الشعر العامي ، ويري الأستاذ حنا الفاخوري أن هذا الشعر يرجع إلي أقدم من ذلك العهد ويخاله معاصراً للشعر الجاهلي . [1] غير أن الأقرب إلى الصحيح أنه سُمي بالموال لموالاة أشطره في قوافيه وجناسه اللفظي ، وهو على أربعة أصناف : فما هو منه على هيئة الرباعي قد تتحد فيه القافية في الأشطر الأربعة ومثاله :

وحق يا بدر تَغريبك وتغريبي ۞
لا تِتْبعِ النفس تغري بك وتغري بي
خلي المقادير تجري بك وتجريبي ۞
وتنظر الناس تجريبك وتجريبي

وقد تختلف فيه قافية الشطر الثالث ، على هذا المثال :

إذا كان عذابي وسقمي في هواك يرضيك
لاصبر على محبتك والزم غرامي فيك
إياك على كدا تترك عنادك يومْ
وتفض هجرك ويمكن ربنا يهديك

(1) الشعر الأندلسي حنا الفاخوري ص ٨٠٦ .

والخماســي منه يسمونه : الأعرج وهو خمسة أشطر .. ثم السداسي ويقال له المرصع ، ثم السباعي ويقال له : النعماني [١]

٤ــ الزَّجل : الزجل بالتحريك هو رفع الصوت والجلبة فيه ، وخص به التطريب ، قال الشاعر :

له زجلٌ كأنه صوتُ حادٍ إذا طلبَ الوسيقة أو زميرُ

وهو ضرب من الموشحاتِ ، ولكنه أقصر نظماً وأردأ لفظاً ، إذ يجنح بــه العامية لزوماً ، وقد نشأ بالأندلس في أوائل القرن السادس للهجرة ثُم انتقل إلى المشرق وانتشر بين العامة ، دون قيد ولا ضابط .. وكان إمــام الزجالين بالأندلس " أبو بكر بن قزمان " القرطبي المتوفى سنة ٥٥٥هــ يقول في أحد ازجاله :

زجلي المرفوعْ في العراق مسْموعْ
إنَّ ذا مطبوعْ بارَت الأشعـــــارْ
عند ذا الهزْلْ

وقــد انتشــر الزجل بين العامة في المشرق والمغرب ، فأصبح مادة أساسية للغناء ، قوامها اللهجات العامية ، وكادت القصائد الفصحى أن تخــتفي بإزائه ، وكأن الغناء في زماننا إنما اختص بهذا الصنف دون غيــره ، ويســمونه بالأغنية الشعبية ، وأهل الصناعة يسمون الأغنية الزجــلية (طقطوقــة) ومــثالها في اللهجة المصرية لحن الشيخ سيد درويش من مقام (عجم العشيران) :

زروني كل سنة مــرة حرام تتسوني بالمرة
يا كبدي ع اللي ما لهْ حد طول عمره يقاسي الوجد
وتجري دمعته ع الخــد مسكــين حالهْ بالمرة

٥ــ كانَ وكان : وهو ضرب من الزجل القصصي ، قال عنه صاحب تاريخ الموصل : إن أول من اخترعه البغداديون ويسمونه " زكلش " ،

---

[1] انظر هذه الأنواع وأمثالها في : تطور الشعر في الغناء العربي ص/ ٤٦وما بعدها .

وقـــد بـــدأ استعماله أول الأمر في نظم الأساطير والخرافات ، فكان الـــزجال يحكي به قصص الأولين ، ولما ظهر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـــ وشمس الدين الكوفي نظما في الحكم والمواعظ . والجيد مـــنه معـــرَّب الألفاظ ، ويتميز بأن أواخر أبياته تنتهي بقافية ممدودة مزدوجة السكون ، ومثاله :

صرِّح بذكر المحبةْ ما في المـــعمَّى فايدهْ
وقل نعم أنا عاشـــقْ ليس الخبرْ كالنظـــرْ
ودعْ حديث العواذلْ ليس الخبرْ كالنظـــرْ
أنـــا عاشق لحبيبْ كل المعـــاني فيـــهْ

٦ـــ القوما: وهي من فنون الزجل مما استنبط في تنبيه الناس لوقت الســـحر فـــي شهر رمضان وقد اخترعه البغداديون أيضاً قيل : كانوا ينشدونه عند السحر في رمضان ، سمي بذلك من قول المغنين " قوما تسحر قوما " وجعلوه علي وزن هذه الكلمات الثلاث وتفرع عنه فروع دعَوها : (الزهري والخمري وغيرهما).
والأصـــل فيـــه : أن يـــوزن عـــلى قياس مجزوء المنسرح مع تغيير عروضـــه وضـــربه فـــي قافيـــةٍ ممتدة مزدوجة السكون على وزن (فاعلان) ومثاله ، قول صفي الدين الحلي :

لا زال سعدك جديـــ دْ دائم وجدكْ سعيد
في الدهر أنت الفريـــدْ وفي صفاتك وحيدْ
ولا بـــرَحـــْتَ مُهنـــّاً بكل صوم ٍ وعـــيد

۞۞۞۞۞۞

المعارضة في شعر الأندلس :

المعارضـــة في اللغة : هي من قولهم : عارض الكتاب بالكتاب يعـــني قابلـــه بـــه ، وعــــارض فلاناً : باراه وأتى بمثل ما أتى به ، وعارض فلاناً في السير : سار حياله وفي الحديث عن النبي (ص) : " كـــان جـــبريل يعارضني بالقرآن ، أي يقابل ما عنده بما عند النبي محمـــد (صلى الله عليه وسلم) ، فهي تدور حول المقابلة ، والمجاراة (المحاكاة) والتصدّي .

واصطلاحاً : هي أن ينشئ شاعر أو ناثر نصاً على غرار نص آخر بدافـــع مـــن الدوافـــع على أن يتفقا في الموضوع أو الروح والاتجاه والـــوزن والقافيـــة وحركة حرف الروي ــ إن كانت المعارضة في الشعر . والتقيد بالموضوع ، لا يعني اتحاد الموضوعين ، ولكن يعني اتفاقهما في الاتجاه ، فالمدح والرثاء موضوعان ، بيد أن كليهما مدح أما الأول : فمدح لحي وأما الآخر: فمدح لميت .[١]

والمعارضة : فن قديم منذ العصر الجاهلي ، انتشر مع انتشار الإسلام حيث كان ثلاثة من شعراء المشركين يتشددون في هجاء النبي (ص) وهم : عبد الله بن الزبعري ، وأبو سفيان ، وعبد الله بن رواحة . وأن ثلاثـــة من شعراء الأنصار كانوا يذبـــّون عن رسول الله (ص) وهم : حســـان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وفي ظل هذه الظروف كان لابدَّ من ازدهار المعارضة .!

وفي الأندلس : رأينا هذا الفن ينتشر، **وكان دافعهم إليه : هو** الإعجاب بهـــذا الفـــن ، وإظهـــار التنافس والتفوق ،وسعياً من شعراء الأندلس لإثـــبات الـــذات ، بحيث أصبحت المعارضات غرضاً من الأغراض

---

[1] راجع من حديث المعارضات الأدبية د/ عبد الوارث الحداد ص ١٣، ١٤ ط/١ / ١٩٨٦م

الشعرية في الأندلس ، يقصد إليها ، لدافع من الدوافع المذكورة ، ففي قصيدة أبي فراس الحمداني : [1]

أسرتُ وما صحبي بعُزلٍ لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ، ولا ربــُّه غمرُ
ولكن إذا حم القضاء على امـــرئٍ ... فليس له بــرٌ يقيــهِ ولا بحرُ
ولكننـــي أمضـــي لما لا يعـــيبني ... وحسبك من أمرين خيرهما الأسر
وقال أصيحابي ، الفرار أو الردى ... فقلت : هما أمران أحلاهما مــرُّ
ولا خير في دفعِ الردى بمـــذلـــةٍ ... كما ردَّها يوماً بسوءته عمـــرو

يعارضه أبو بكر محمد بن سوار الوزير الأشبوني في قصيدة يصف بها اعتقاله بمدينة قورية بالأندلس ، فيقول :

سريت وأصحابي يميلهم الكرى ... فهـــم منه في ســُكر وما بهـــم سكرُ
ولما بدا وجه الصباحِ تطلــَّعت ... خيـــولٌ من الوادي محجـــَّلة غـــُرُّ
وأفردتُ سهماً واحـــداً في كنانة ... من الحرب لا يخشى على قلبه الكسر
وكنت عهدت الحرب مكراً وخدعة ... ولكن من المـــقدور ما يـــُرى مـــكـــرُ

فموضـــوع القصيدتين يدور حول الأسر ، وما يتبعه من حديث عن النفس .. وهما على وزن بحر الطويل ، وقافية رائية واحدة .

ووفي رائية أبي نواس المشهورة ، والتي يقول فيها :

تقول التي من بيتها خفَّ محـــملي ... عزيـــز علينا أن نراك تسيرُ
أما دون مصر للغنى متطـــلـــبٍ ... بلى ، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لـــها : واستعجلتـــها بـــوادر ... جرت في جريهن عبيـــــــر
ذريني أكثـــِّر حاسديكِ برِحْـــلةٍ ... إلى بلد فيها الخصـــيب أميرُ
إذا لم تزر أرض الخصيب ركابنا ... فأي فتى بعد الخصيب يزارُ

---

[1] ديوان أبي فراس ص / ٦٦ ط دار الكتب العلمية بيروت .

يعارضها ابن دراج القسطلي [١] فيقول :

ولما تدانتْ للوداع وقد هفـــــا بصبـرِيَ منها أنةٌ وزفيــــرُ
تناشدني عهد المودة والهـــوى وفي العهد مبغوم [٢] النداء صغير
عبييٌ بمرجوع الخطاب ولحظه بمـوقع أهواء النفوس خبـير
عصيت شفيع النفس فيه وقادني رواح لتدآب السُّرى وبكور
وطار جناح الشوق بي وهفت بها جوانحُ من ذعر الفـراق تطير

فـأبو نـواس يصـور ما لاقاه من عنت ومشقة ، وكانت امرأته تـنازعه الرحيل ، وتبكي بدموع يذيب الصخر . وكذلك يصور " ابن دراج القسطلي " قلق زوجته وخوفها عليه من طول السفر ، فهي تبكي بدمـع كالجمان ، وأن طفلته الصغيرة وإن لم تستطع أن تعبر بلسانها فقـد تعلقت يداها بكتفيه ، وراحت تعبر بنظراتها ، وتخفق أحشاؤها ، فهي متعلقة بموقع أهواء النفس..!
كما اتفقت القصيدتان في وزن بحر الطويل والقافية الرائية .
وابن الدراج من الناحية الفنية ، يمثل الذروة من الاتجاه المحافظ في الأندلس في أواخر القرن الرابع وأوئل القرن الخامس الهجري [٣]

******

وسـعياً مـن الشـعراء الأندلسيين لإثبات الذات فقد انتقلوا من تقليد ومعارضة المشارقة .. إلي اتجاه آخر وهو معارضة بعضهم بعضاً ، فنجد أبا بكر بن الملح في قصيدته ، والتي منها : [٤]

---

[1] هـو أحمـد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيس بن دراج (راجع الأدب الأندلسي د/ أحمد هيكل ص/ ٣٠٣ ، ٣١٢ .وديوان ابن دراج ص ٢٩٧ــ ٢٩٩ .
[2] بغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه .
[3] د/ أحمد هيكل ص/ ٣٢١ .
[4] مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ص ٢٤٤ .

هل يسمع الريح شكوانا فيشكينا   أو يرجع القول مفناه فيفنينا .

يعـــارض ابن زيدون في نونيته المشهورة في الشوق والحنين ، على نفس البحر البسيط ، وعلى نفس القافية النونية ، في قوله :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا   وناب عن طيب لقيانا تجافينا

كما نرى ابن سهل الأشبيلي [١] في قصيدته التي مطلعها :

الأرض قد لبست رداءً أخضرا   والطل ينثر في رباها جوهرا

يعارض ابن عمار في قصيدته التي منها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى

والنجم قد صرف العنان عن السُّرى

******

واتسعت المعارضات حتى شملت فن الموشحة !

فموشحة ابن الخطيب التي يقول فيها :

جادك الغيث إذا الغيث همى   يا زمانَ الوصلُ بالأندلـــــس
لم يكن وصلك إلا حـــُلمـــا   في الكرى أو خلسة المختلس
والحيا قد جلجل الروض سنا   فثغـــور الزهر فيـــه تبـــسم
وروى النعمان عن ماء السما   كيف يروي مالك من أنس[٢]
فكســـاه الحســْن ثوباً معلما   يزدهي منه بأبـــهى ملبـــس
قمرٌ أطلـــع منـــه المغـــرب   شقوة المضني ، به وهو سعيد

---

[1] هو الشاعر الرقيق الوشاح ، ابراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي ، وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلي كان يهوديا وأسلم ، ثم مات غرقا سنة ٦٤٩هـــ .

[2] مـــاء السماء: أم المنذر ، وجدة النعمان بن المنذر ، والمراد هنا المطر . النعمان : هو ابـــن مـــنذر ملك الحيرة ، والمراد هنا : شقائق النعمان . ومالك : هو الإمام مالك ابن أنس ، إمـــام المدينة وأحد الأئمة الأربعة . وأنس والده ، والمراد أن رواية مالك عن أبيه أنس رواية صادقة ، مثل رواية زهر الشقيق عن أبيه ، وهو المطر الذي جعله نضراً حسن المنظر .

قد تساوى محسن أو مذنبٌ في هواه بين وعد ووعيد

فهذه الموشحة امتدح بها ابن الخطيب أميره " الغني بالله محمد بن أبي الحجــاج " أحــد ملوك بني الأحمر [١] ولكنه قبل أن يصل إلى المدح بدأهـــا بالغـــزل ثـــم بوصف الطبيعة ، كما زيَّنها بالتوريات اللطيفة ، فداعـــب الورد ولاطفَ الآس ، وتغزل ، والتاع وشكا ، كل ذلك حتى يجعـــل من هذه المعاني مهاداً يلقي من خلالها بباقات المديح التي أراد أن يقدمهـــا لأميـــره ، ولم ينس لسان الدين حين بسط عليها شيئاً من الفخر . وبهذا نعلم أن هذه الموشحة اشتملت على عدة فنون هي المدح والوصـــف والغـــزل والشكوى والفخر . وفي هذه الموشحة معارضة لموشحة ابن سهل الإشبيلي ، التي يقول فيها : [٢]

هل درى ظبيُ الحِمى أنْ قد حَمَى قلبَ صَبٍ حــلَّــه عن مَكْنِسِ
فهـــو فـــي حـــرٍّ وخفـــقٍ مثـــلما لعبتْ ريـــحُ الصَّبا بالقبــــسِ [٣]

فابن الخطيب قد نقل بهذا الصنيع المعارضة من الشعر إلى الموشحات مؤكـــداً على الرابطة القوية التي بينهما. وقد وظف كثيراً من الصور الحسية في التعبير عن المعاني المرادة ، كتشخيصه لمظاهر الطبيعة من مناجاة الماء والحصى وتصوّر محبوبته قمراً تسبب في شقائه لكنه ســعيد بذلــك الشقاء ، وقد استعان بألوان من المحسنات البديعية التي تـــتلائم مـــع الطبيعة الأندلسية بما فيها من رياض ورياحين ، وشمس

---

(1) راجع مجلة كلية اللغة العربية بالمنصورة عدد١٠ د. سيد ديب .ص/١٨٢ــ ١٨٦ .

(2) المـــرجع الســـابق ، والمنـــتخب من أدب العرب ج٣ ص/ ١٥٠ ط/ ا لمطبعة الأميرية القاهرة ١٩٤٩م .

(3) ظبي الحمى قد حمى: دفع عنه ، والمقصود ، المرأة الجميلة . المكنس : مأوى الظبي

صافية وأنهر جارية ، وقمر مضيئ .. واستخدم الطباق (قد تساوى محســن أو مذنب) ، (بين وعد ووعيد) كما استخدم التورية[1] في قوله :

روى النعمان عن ماء السماء كيف يروي مالك عن أنس

فكــلمة النعمان ذات دلالتين الأولى : النعمان بن المنذر ، والأخرى : شــقائق الــنعمان (نــوع من الزهر) وهي المرادة مع أن الدلالة على المعنى الأول واضحة ، وهي (ماء السماء) جدة النعمان وأم المنذر. كمــا اختار ابن الخطيب لموشحته بحراً غنائياً مطرباً ذا إيقاع جميل ، وموسيقى حسنة ، وهو بحر الرمل .

******

وكــان مــن الظواهر الحضارية في الأندلس وصف النهر والطبيعة المائية والزوارق النهرية ؛ وذلك لأنها كانت أدوات استمتاعهم ، فهذا ابن صارة الشنتريني ، قد ركب زورقاً في نهر أسبيلية ذات مساء فقال :[2]

تأمل حالنا والجــو طلــق مُحيــّاه وقد طفــل الماء

وقد جالت بنا عذراء حبلى تجاذب مرطها ريح رخاء

بنهر كالســجنجل كوثري تعبس وجهها فيه السماء

وقــد أعجب ابن خفاجة بغرابة ذلك التشبيه حيث شبهه بعذراء حبلى فأغراه هذا بالمعارضة ، فراح يشبه الزورق بتشبيه آخر ، فقال :[3]

---

[1] التورية هي أن يذكر المتكلم لفظاً له معنيان أحدهما قريب ظاهر غير مراد ، والآخر بعيد خفي ، وهو المراد ، كقول صلاح الدين الصفدي :

وصاحب لما أتاه الغنى تاه ونفس المرء طماعة

وقيل : هل أبصرت منه يدا تشكرها قلت : ولا راحة

[2] نفح الطيب ج٤/ ٢٩٤ .

[3] ديوان ابن خفاجة ص/ ١٢.

ألا حبـــذا ضحـــــك الحُميـــّا	بحانتها ، وقد عبس المساء[٤]
وأدهمَ ، من جياد الماء ، مهرٍ	تنازعُ ، جلّه ، ريحٌ رخاء [٥]
إذا بدت الكواكبُ فيه غـــــرقى	رأيت الأرض تحسدها السماء

ولاشك ، أن هذه الظاهرة في شعر الأندلس ،كانت جانباً حضارياً مشرقاً ، وميزةً له ، فضلاً عن التنافس في هذا الفن (المعارضة) وإثباتاً للذات .

۞۞۞۞۞۞

---

(4) الحميا : سَورة الخمر . الحانة : موضع بيع الخمر .

(5) أرادَ بالأدهم من جياد الماء : الليل المظلم الممطر . الريح الرخاء : اللينة .

الفصل الثاني

أحوال النثر الأندلسي

النثر الأندلسي

سار النثر الأندلسي منذ الفتح على غرار النثر المشرقي في أغراضه و تطـور على غرار تطوره في الشرق العباسي ، وقد قسم الدكتور أحمـد هيكـل النـثر الأندلسي عدة تقسيمات ، وعرض الأستاذ حنا الفاخوري تقسيمات أخري يمكن أن نجمع بينها بإيجاز فيما يلي :

أولا : مدة الولاة : (٧١٠ ــ٧٥٥هــ) من طارق بن زياد إلى يوسف الفهــرى آخــر الولاة ، وكان النثر فيها تقليدياً محاكياً النثر الأموي ، ضـئيلا ، وهو على ضآلته أوفر من الشعر ؛ لأن دواعي النثر كانت أكــثر . حيــث اتســمت هذه الحقبة من الناحية السياسية بالمنازعات والحــروب ، فاشــتدت الحاجــة إلى دواعي النثر ، **كالخطابة** (فن مخاطــبة الجماهيــر للإقناع والتأثير) التي اقتضتها ظروف الحرب والنزاع القبلي ، وقد دخل العرب بلاداً جديدة فيها عدو قاس لا ينام عــلى ضيم ، فكان لا بد للولاة من الاستعانة بالخطابة ، لإيقاد الحمية فــي الصدور ، وحمل الناس على الصبر في الجهاد ، والاستماتة في الدفاع عما استحوذوا عليه ، أو في إخضاع الأقاليم الأخرى لسلطانهم كمــا تتطلبــتها مناسبات سياسية ودينية مختلفة ولا يمكن أن نتصور المســلمين فــي الأندلــس قد عاشوا حقبة الولاة دون أن يصغوا إلى خطــباء ، فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ويدعوا للنظام الجديد [١]

ولعل خطبة " طارق بن زياد " (في الترغيب في القتال) بعد أن نزل بهــم بــلاد الأندلــس ، وبعد أن أحرق السفن التي حملته وجنوده من شــمال إفــريقيا إلى جنوب إسبانيا ــ كانت من أصدق النماذج على الأسلوب الذي استعمل في عصر الولاة ، وهذه بعض مقتطفات منها :

[1] الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة ص /٦٥

" أيها الناس : أين المفر ، البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم — والله — إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم هنا أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة وأنتم لا وَزَر لكم[١] إلا سيوفكم ، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهب ريحكم [٢] وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة ...."

وقد لقي العرب طوال ثمانية قرون — مدة حكمهم بالأندلس عنتاً وإرهاقاً وشقاءً متواصلاً .. وقد استلزم هذا كله أن تكون الخطابة أداةً للدعاية والحض على قتال الأعداء والمارقين وتأييد العصبية في القبائل والحث على بذل النفس والتضحية بالمال ..

والكتابة : كذلك اقتضتها ظروف الفتح والحكم أو المناسبات الرسمية والشخصية العديدة ، كعهدٍ يُعطى أو صلح يبرم أو رسالة تُوجَّه. وقد حفظت لنا بعض المراجع كتابات قليلة جداً وأسماء كتَّاب مثل العهد الذي كتبه " عبد العزيز بن موسى بن نصير ل" تودمير" أحد حكام القوط ، وقد جاء فيه :

" بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز إلى تدمير ، أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ونساءهم ولا يُكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تُعُبِد ونصح "

وجزء من رسالة " يوسف الفهري آخر الولاة إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس .[١]

---

[1] الوزر : الملجأ ، والمراد به هنا السلاح .

[2] ذهب ريحكم : ذهبت قوتكم .

[1] راجع هذه النماذج بالمرجع السابق ص ٦٥-٦٦ .

ويمكننا من خلال هذه النماذج أن نعرف أهم سمات النثر بالأندلس ، فهو نثر يميل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ثم هو لا يعرف تلك المقدمات الطويلة ، والألقاب العديدة .

ثانياً : مدة تأسيس الإمارة : (١٣٨ـــ ٢٠٦هـــ) وهو عهد عبد الحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم . وتشهد هذه الحقبة أول خطوة نحو أدب أندلســـي مـــتميز حيـــث ظهـــر أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيـــن ، كمـــا ظهرت أديبات من الأندلس ، ورغم هذا كله ، ظل **النـــثر مقصوراً** على تلك الأنواع التقليدية من الخطب ، والرسالة ، والوصايا والمحاورات . وكان اقتصاره على تلك الأنواع أمراً طبيعياً مـــع ظروف الأندلس السياسية والاجتماعية والثقافية ؛ ولأن أصحابه الوافدين من الشرق ساروا في بيئتهم الجديدة على التقاليد التي ورثوها من الوطن الذي نزحوا عنه ، كما كانت هذه الأنواع هي المألوفة في المشرق حينذاك ، وكان المشرق هو المصدر الأول لاتجاهات الأندلس الـــثقافية والأدبيـــة ؛. ولم يكن الشرق يعرف آنذاك من مظاهر النثر ســـوى عظات تحمل الناس على القيام بفرائض الدين ، وأقوال تذكي الحماســـة في صدور المجاهدين ، وتقطع دابر الشقاق والفتنة بالتهديد والوعيـــد ، ورسائل يتبادلها الحكام والعمال ، ويظهرون فيها ضروباً من الفن والبراعة .

هـــذا من حيث : **أنواع النثر وأغراضه** ، أما من حيث : **الأسلوب** : فيلاحـــظ أيضـــاً أنه لا يزال نثراً تقليدياً يتسم بالجزالة المسببة أحياناً لغـــرابة بعـــض الألفاظ ، كما اتسم بالجودة المعتمدة على الطبع أولا وعـــلى بعـــض المحسنات التي تأتي بين الحين والحين دون تكلف أو افتعال ، وكان يتسم بالبساطة والتعبير المباشر ، والابتداء بالموضوع دون مقدمـــة أو تمهيد ، وكان يتسم بمراعاة المقامات ، فهو موجز في

مواطـــن الإيجاز كخطب الحرب ورسائل الانذار ، مطنب إلى حدٍ ما فـــي الوصـــايا والمنشورات ، وما أشبه ذلك مما يتطلب بسط القول ، وعلى هذا ، فهو يشبه إلى حد كبير النثر الذي عرف في المشرق أيام الدولة الأموية ، حيث سار على الأسلوب الأدبي المحافظ .

وكـــان هناك ناثرون عديدون مثل فطيس بن عيسى وخطاب بن يزيد اللذين كانا كاتبين لهشام بن عبد الرحمن ، ثم لابنه الحكم ، والرَّبضي كان من أمراء هذه الحقبة وكان كاتباً وموصيا .

ومن أمثلة الخطب ، ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال في المعركة الفاصلة بينه وبين يوسف الفهري ، قال :

" هـــذا اليـــوم هـــو أسٌّ ما يُبنى عليه إما ذل الدهر وإما عز الدهر . فاصـــبروا ســـاعة فيمـــا لا تشتهون ، تربحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون " (١)

وقد ظل الترسل في القرن الأول من الفتح صورة للنثر الرسائلي في مكاتـــبات الخـــلفاء والقـــواد والعمـــال في العهد الراشدي والأموي : فالأغراض محدودة تمليها الأحوال السياسية غالبا ، ومعانٍ جلية تؤدى عـــلى أوضح وجه ، وفي أسلوب موجز ، خالٍ من الزخرف والتنميق إلا مـــا يـــأتي عفواً ، ومثال ذلك ما كتبه " بدر " مولى عبد الرحمن الداخل عاتباً على سيده قال : " أما كان جزائي في قطع البحر وجنوب القفـــر ، والإقـــدام على تشتيت نظام مملكة وإقامة أخرى غير الهجر الذي أهانني في عيون أكفائي ، وأشمت بي أعدائي .... فإنا لله ، وإنا إليه راجعون " (٢)

ومـــن الرســـائل أيضا ما كتبه عبد الرحمن إلى خارج عليه ، يسمى سليمان الأعرابي وهو قوله :" أما بعد : فدعني من معاريض المعاذير والتعسف عن جادة الطريق لتمدن يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل

---

(1) نفح الطيب ج٢ ص٧٠ . (2) راجع الأدب الأندلسي ، حنا الفاخوري ص/ ٨١٩ وما بعدها .

الجماعة أو لأزوينّ بنانها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد [٢]

ومن أمثلة الوصايا: ما وجهه الحكم الربضي إلى ابنه عبد الرحمن ، حين شعر بدنو أجله ، فقال " إني قد وطدت لك الدنيا وذللت لك الأعداء ، وأقمت أود الخلافة ، وأمنت عليك الخلاف والمنازعة . فاجر على مانهجتلك من الطريقة ، واعلم أن أولى الأمور بك وأوجبها عليك ، حفظ أهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلونهم من مواليك وشيعتك فبهم أنزل ثقتك .. ولا تدعنّ مجازاة المحسن بإحسانه ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن التزامك لهذين ووضعك لهما موضعهما يرغّب فيك ويرهّب منك . "

ومن أمثلة المحاورات : ما دار بين جندي وعبد الرحمن الداخل ، حيث قال الجندي : " يا ابن الخلائف الراشدين والسادة الأكرمين إليك فررت ، وبك غذت من زمن ظلوم ودهر غشوم ...فأجابه عبد الرحمن : " سمعنا مقالتك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك على كرهنا لسوء مقامك ، فلا تعودون ولا سواك لمثله من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف في الطّلبة ، وإذا ألمّ بك خطب أو حَزَبك أمر فارفعه إلينا في رقعة .." [١]

فهذه نماذج جاءت على لسان قادة من عرب المشرق والدولة عربية خالصة ، وروح البلاغة العربية البدوية تجول في نفس كل خطيب وكاتب وشاعر ، وكل من هاجر من المشرق كانوا أعراباً في أفكارهم وأخيلتهم وأساليبهم . ولذلك جاء النثر خالياً من السجع المتكلف ، وامتاز بقوة العارضة وجاء جزلاً فصيحاً مقتضباً ، يجري مع الطبع ،

---

[2] زوى الشيء : جمعه وقبضه . والرضف : الحجارة المحماة .(نفح الطيب ج٢ ص٦٨- ٦٩)

[1] راجع الأدب الأندلسي ، د/ هيكل ١١٢، ١١٣ عن (المقتبس لابن حيان جزء عن إمارة عبد الرحمن الأوسط) .

وكـــانت معـــانيهم مـــع وضوحها محصورة ضمن دائرة الأغراض الحـــربية . كمـــا حمـــل النثر إلى الأندلس ملكة البيان عند القادة من العـــرب ، وخبرتهم في فن مخاطبة الجند ، أوالجماهير بقصد الإقناع والتأثير .

ثالثاً : مدة صراع الإمارة (٢٠٦ـــ٣٠٠هـــ) وقد حكم فيها أربعة من أمراء بني أمية بالأندلس وهم : عبد الرحمن الأوسط ثم ابنه محمد ثم حفيده المنذر، وعبد الله ابنا محمد. وقد تقدم النثر في هذه الحقبة تقدماً ملحوظاً ، يتضح بكثرة الأدباء الناثرين حتى أصبح لكل أمير عدد من الكتاب أقله اثنان ، فكان من كتاب الأمير عبد الرحمن الأوسط ، عبد الكـــريم ابـــن عبد الواحد ، وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد : موسى بن زياد ، وعبد الله الزجالي ، وعبد الله بن أبي عبده .

كمـــا كان من مظاهر تقدم النثر أن الاشتغال بالكتابة لم يعد وقفاً على هـــؤلاء المســـلمين ذوي الأبـــوة العـــربية ، ولكنه تعداهم إلى بعض المسيحيين ذوي الأصول الإسبانية ، وكان من أهم سمات النثر حينئذ تأثره بأسلوب عبد الحميد الكاتب المشرقي الذي لمع في أواخر العصر الأمـــوي والـــذي كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات ثم تأثـــره ثانيـــاً بأسلوب الجاحظ الذي تألق في العصر العباسي ، وكان صـــاحب مدرســـة أهـــم سماتها : الميل إلى الجمل القصار ، وإجادة اســـتخدام حروف الجر متتابعة متغايرة في دقة ، وحسن استعمال ثم أداء المعـــنى الواحد بعدة جمل ، تبدو في الظاهر تكراراً ، ولكنها في الواقع تجسيم للمعنى ، وتفنن في ابرازه ، وقد وصلت بعض كتبه إلى الأندلس ككتاب " التربيع والتدوير " والبيان والتبيين ، كما كان يقصده بعـــض الأندلسيين للتلمذة عليه ، وامتدت تلمذة بعضهم عليه عشرين ســـنة . ومن نماذج الخطب في فترة صراع الإمارة خطبة الأمير عبد

الرحمن الأوسط بعد أن تم دفن واله الحكم الربضي ، وفيها اتضحت سمات عبد الحميد الكاتب ، قال :

" الحمـــد لله الـــذي جعل الموت حتما من قضائه وغزما من أمره ، وأجـــرى الأمور على مشيئته ، فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما لهم نجاة من الفناء . تبارك اسمه وتعالى جده وصلى الله على نبيه ورســـوله وســـلم تسليما . وكان مصابنا بالإمام رحمه الله .. فعند الله نحتسبه وإياه نسأل إلهام الصبر " (١)

ومـــن الرسائل رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط إلى عبد الملك ابن أمية ، وكان قد اختاره الأمير كاتباً له يقول :

" قد فهمنا عنك ، ولم نأت ما أتيناه عن جهل بك ، لكن اصطناعاً لك ، وعائدة عليك وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب ، فتخيـــَّر مـــنهم من تثق به ، وتعتمد عليه ، ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك إلى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة إن شاء الله تعالى (٢)

وفي هذه الرسالة يظهر تأثير الجاحظ ، ففيها تفنن في استخدام حروف الجر وإيرادها في تقابل بارع ، وفيها كذلك تلك الجمل القصار المتتابعة في غير تكرار .

رابعــاً : عصر الخلافة (٣٠٠ـــ ٤٢٢هـــ) وهو العهد الذهبي للحكم الأندلســـي منذ أن اتخذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر، سنة ٣١٦هـــــ إلى آخر أموي في قرطبة ، وقيام ابن جوهر بالأمر سنة ٤٢٢هـــــ . وفـــي ظل الخلافة الأموية ، ثم رعاية ملوك الطوائف تـــبدلت الحـــال الأدبية ، فاتسعت آفاق العلم والرقي ، وكان من أهم مظاهر النهضة الأدبية : ظهور نوعان من النثر :

---

(1) الأدب الأندلسي د هيكل ص١٧١ عن البيان المغرب لابن عذارى ج٢ص١٣٥ .

(2) المرجع السابق ١٧٢

الأول : التقليدي الخالص ، والآخر : النثر التأليفي

أمـــا الأول : فقد سار متأثراً بالمذهب الجاحظي ، ثم أخذ يتجه بشكل واضح إلى المنهجية ، والعناية بالبدء والموضوع والختام ، وانعكست عـــليه فخامة الأندلس ، وعظمتها في مدة الخلافة ، فكثرت الألقاب ، والجمـــل الدعائيـــة المفخمة ، والعبارات الاعتراضية المعظمة وظهر الميـــل إلى التطويل والتكرار والبسط ، وكان النثر الصادر عن ذوي الثقافة الدينية أكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، وأعظم ميلاً إلى السجع ، وأشد تعلقاً بالإطناب [1]

أمـــا النثر التأليفي : فقد تمثل في فرعين : الأول : التأريخ الأدبي ، وكـــان تأريخاً ساذجا بطبيعة الحال ، فهو مزيج من التراجم والأخبار والمخـــتارات والحديـــث عـــن الشعر والشعراء مثل كتاب " طبقات الشـــعراء بـــالأندلس لعـــثمان بن ربيعة القرطبي و" أخبار الشعراء بـــالأندلس" لمحمد بن هشام المرواني ، و" شعر الخلفاء من بني أمية " لعـــبد الله بن مغيث و" الحدائق " لأحمد بن فرج الجياني ، وقد أودعه الجياني مختارات من أشعار الأندلسيين في الحب معارضاً بذلك كتاب " الزهـــرة " لابـــن داود الأصبهاني ، ومن المؤسف أن هذه التراجم ضاع أكثرها .

وأما الفرع الآخر : (التأليف الأدبي) فنعني به تأليف كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكلمة أدب ، وكان يعني الثقافة العربية الخالصة ، كما يعنى بـه الـتأديب والـتهذيب ، وعلى هذا جـاء " الـبيان والتـبيين " للجاحظ " والكامل للمبرد " و" الأمالي " لأبى علي القالي و" الأغاني" لأبي الفرج الأصبهاني و" العقد " لابن عبد ربه .

كمـــا لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة في هذه المرحلة حيث قام بها طائفـــة من الأدباء ومن بينهم ابن المنذر وابن جوهر وابن بسيل وابن

---

[1] د. أحمد هيكل ص/ ٢٤٧ .

فطيـــس وابن أبي عامر والمصحفي ، كما عملت بعض النساء خلال مدة الخلافة في ميدان الكتابة الرسمية وممن حفظت أسماؤهن :مزنة ، كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى كاتبة الخليفة المستنصر [٢]

ومـــن هـــنا ندرك : أن زمن الخلافة ، كما كان العصر الذهبي للحكم الأندلسي ، كان العصر الذهبي للثقافة فى الأندلس وأن الخليفة الناصر وابـــنه الحكـــم ثم ملوك الطوائف راحوا يتبارون في إنشاء المدارس والمكـــاتب ويرسلون البعثات إلى الشرق لتأتيهم بثمار نضوجه الأدبي والعلمي ، وتتحفهم بمصنفات كتَّـــابه وشعرائه ، ويتنافسون في إسناد مناصـــب الـــوزارة إلى أصـــحاب الحذق والمهارة في الترسل . فلما أصـــبح النـــثر له المقام السامي في عيون الأمراء تنافس الأدباء فيما بيـــنهم وتفنـــنوا في أغراضه وألفاظه ، وراحوا يبسطون فيه المقالات الضافية ، طمعاً في لقب " الكاتب " أو " الخطيب " فنهض هذا الأدب عامة نهضة محمودة . وكان من مظاهر تلك النهضة : اهتمام الأمراء بالكـــتاب والخطباء ، وإنشاء المكتبات الجامعة ، واستتبع ذلك ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر ، وبعض الأنواع الجديدة في النثر وشيوع النتاج الأدبي ، وظهور النثر التأليفي إلى جانب النثر القديـــم .ولما زاد سواد الذين يرتجلون الخطابة ويتعهدونها حين بالغ الأمراء فـــي تعظيـــم مـــن يجيدها حتى أضافوا القضاء إلى الخطابة فسما بها جماعة من مشاهير الخطباء : كالوليد بن عبد الرحمن بن غانم في أيام عـــبد الرحمن الأموي ، وعبد الله الفخار في زمن المرابطين ، وأبي الحسن منذر سعيد البلوطي قاضي قرطبة ت سنة (٣٣٥هـــ ٩٤٦م)

أمـــا أساليب الإنشاء : فتنوعت بتنوع الموضوعات ، وتطورت تطور النـــثر الرسائلي ، فبينا ترى الكلام جزلاً بليغاً عند ابن عبد ربه يحليه السـجع أحياناً من غير إفراط ، تراه يصبح فيما بعد ـــ حتى في كتب

---

(2) المرجع السابق ص/ ٢٤٨ .

العلم والتاريخ ، كالشعر المنثور ــ فيه من أنواع المجاز والبديع والتنميق اللفظي الشئ الكثير
وجاب الرحَّالة الشرق وحملوا إلى بلادهم مؤلفات أشهر المترسلين فيه وتعددت الدواوين ، وانتشرت مظاهر الحضارة في جميع وجوه المعيشة، فأصبح الترسل فناً مستقلاً يتعهده الأدباء كما يتعهدون الشعر وكثرت أغراضه وتنوعت أساليبه ، وكان منه نوعان : الديواني والأدبي. أما الترسل الديواني : فموضوعاته : مكاتبات الأمراء والعمال ، وما يتخللها من تهنئة بالظفر ، وإعلام بالحال ، وتقليد وظيفة . أما الترسل الأدبي: فقد انصرف إليه جميع الكتاب ، واحتوى على الإخوانيات بأصنافها ، والمناظرات والمناقشات والمقدمات ، والقصص الخيالية ، والمقامات . وكان من أغراضه الاعتذار والشوق والمدح والهجاء والعتاب والرثاء والشكوى والاستعطاف ، والاستهزاء والمناظرات بين السيف والقلم ، وأصناف الزهور والحيوان ، وما إلى ذلك . وكان الوصف غالباً على نثرهم كما كان غالباً على سعرهم ، فاستعاروا من جمالات الطبيعة تشابيهم ، وتكلموا على السماء وسحبها والرياض وزهورها ، والأنهار والطيور والقصور ، والأسفار والحروب ، والخمر والندمان ومجالس اللهو والطرب إلى غير ذلك من مظاهر الحياة المترفة الناعمة ، وكان من أعلام الكتاب في الأندلس : ابن زيدون ، وابن شُهيد وابن برد الأصغر ، وابن عبدون ، وابن إدريس وابن خفاجة وابن الخطيب . وهذه خطبة ألقاها الفقيه منذ بن سعيد البلوطي في حفل الاستقبال الذي أقامه الناصر لسفير إمبراطور القسطنطينية ، قال :
" أما بعد حمد لله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه والصلاة علي محمد صفيه وخاتم أنبيائه ، فإن لكل حادث مقاما ولكل مقام مقالا وليس بعد الحق إلا الضلال وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك

عظيم ، فاصغوا إليَّ معشر الملأ بأسماعكم وأتقنوا عني بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت .[١]

وهذه نبذة من الرسالة الجدية لابن زيدون[١] وقد كتبها لأبي الحزم بن جوهــر أميــر قرطبة وهو في سجنه يستعطفه ، قال [٢]: " يامولاي وســيدي الذي ودادي له ، واعتمادي عليه ، واعتدادي به ، ومن أبقاه الله تعالى ماضيَ حدِّ العزم ، واريَ زند الأمل ، ثابت عهد النعمة إن ســلبْــتني ــ أعــزك الله ــ لباس إنعامك وعطّلتني من حلّي إيناسك وأظمأتــني بَــرود إســعافك [٣].. إلى أن يقول : " هل أنا يدٌ أدماها ســوارها .. وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسَــا ليزدجروا ، ومن يكُ حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحمُ

هــذا العــتب محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة [٤] ثم تنجلي ، وهذه النكــبةُ سحابة صيفٍ عن قليل تقشَّع ، ولن يريبني من سيدي أن أبطأ ســيبه أو تأخــرٍ غيرَ ضنين غناؤه فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها ، وأثقلُ السحائب مشياً أحفلها ، وأنفع الحيا ما صادف جدباً ، وألذُّ الشراب ما أصاب غليلا ، ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب له الحمد على اهتباله[٥] ولا عتبَ عليه في إغفاله .

---

(1) نفح الطيب للمقري ج١ ص ١٧٢ .

(1) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي وزير آل جوهر بقرطبة ثم آل عباد بأشبيلية ، وصاحب الرسالتين الجدية والهزلية توفي سنة ٤٦٣هـ .وسميت رسالته بالجدية تميزاً لها عن الهزلية التي كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي بالله إلى الوزير ابن عبدوس ، وفيها تتحدث عن عجوز ابن عبدوس التي جاءت تستدرجها إليه .

(2) المنتخب من أدب العرب الجزء الثالث جمع وشرح أحمد الاسكندري ، احمد أمين بك ، علي الجارم بك ص/١٢٥ ط/ القاهرة ١٩٤٩م.

(3) البرود الماء البارد أي أن إسعافك الذي هو كالماء البارد في إروائه للغليل .

(4) النبوة: الجفوة . والغمرة : معظم الماء ، والمراد الشدة .

(5) اهتباله : الاهتبال: الاغتنام أي اغتنام سرر له .

فإن يكن الفعلُ الذي ساء واحداً   فأفعاله اللاتي سَرَرْن ألوفُ

وتفصح هذه الرسالة عن كثير من خصائص نثر ابن زيدون ، فهي تحفل بتضمين المثل والحكمة ومأثور الشعر ، وقد حرص على تناسق الجمل وازدواجها ، واختيار الألفاظ الجزلة الملائمة ، وقد يأتي السجع الذي يعطيها مع التناسق إيقاعاً موسيقياً له تأثيره في النفس ، وإن شابه التقليد في بعض الصور مثل : هذه النبوة غمرة ثم تنجلي ، وهذه النكبة سحابة صيف عن قليل تقشّع ، وأبطأ سيبه " ..

وقد أطلق على المدة من (٣٦٦ــ ٣٩٩هــ) **فترة الحجابة** أو الحقبة الاستبدادية والتي ولي الحكم فيها " الحكم بن أبي عامر" حاجب الحكم المستنصر ، وقد كانت حقبة جمود للأدب وفيها برز النثر الوصفي المتكلف وفيها ظهر أثر لطريقة ابن العميد التي تميل إلى الإطناب ، كما شاعت الصناعة اللفظية هناك شيوعها في المشرق ، فانتشر السجع ، وحفلت رسائلهم بالأمثال والإشارات التاريخية والعلمية ، والتضمين ، وحل المنظوم ، والاقتباس من القرآن ، وتوشيح الكلام بأنواع المجاز والبديع . وكان نثرهم أول الأمر مستساغاً رقيقاً لطيفاً ولكن الأدباء في القرون الأخيرة غمروه بالإسهاب الممل والسجع المتكلف وخنقوا المعاني بزخرف الألفاظ ، فبدت مكرورة طافية لا جديد فيها سوى ما يتصنع به الكاتب للتعبير عنها باستعارة غريبة أو تلميح بعيد .

كما أطلق على المدة من (٣٩٩ ــ٤٢٢هــ) **فترة الفتنة** ، وفيها لم يعد النثر مقصوراً على تلك الفروع التقليدية البسيطة الساذجة التي تتمثل في الرسالة والخطبة والوصية .. وإنما اتسع فشمل القصة ، فكان وصوله إلى هذا أشبه بالطفرة ، فقد وثب إلى القصة الأخروية

التي لا تتناول أحداثاً وأبطالاً من عالمنا هذا . ورسالة التوابع والزوابع تمثل مفخرة الأدب الأندلسي في هذا الفرع [1]

رسالة التوبع والزوابع : وهي قصة خيالية يحكي فيها ابن شهيد رحلة في عالم الجن قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء وناقشهم وأنشدهم وأنشدوه وعرض أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانتزع من ملهى الشعراء والكتاب الأقدمين شهادات بتفوقه ، وعلو كعبه في الأدب كلاً هذا في ثوب من الفكاهات والطرائف . . واختار ابن شهيد لرسالته اسم التوابع والزوابع لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، واتخذ كل أبطالها ـ فيما عداه ـ من الشياطين . فالتوابع : جمع تابع أو تابعة وهو الجن أو الجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب ، والزوابع : جمع زوبعة وهو اسم شيطان أو رئيس للجن. وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كناه بأبي بكر ، وقدم في أول رسالته بمايشبه المدخل إلى القصة ، فذكر عن نفسه كيف تعلم ونبغ وكيف تعجب صاحبه أبو بكر من عبقريته ، وأقسم أن تابعة تتجده وزابعة تؤيده ، لأن مايأتي به من أدب ليس في قدرة الإنس ثم أقر ابن شهيد أبا بكر على تفسيره ، فبين أنه كان يرثي حبيباً له قد مات ، فأرتج عليه أثناء النظم ، وإذا بجني اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ويلقي إليه بتتمة الشعر ، حباً في اصطفائه ، ورغبة في مصاحبته ، كما صاحب التوابع الشعراء . ثم ذكرله هذا الجني أبياتاً يستحضره بإنشادها متى أراد ، وأوثب بعد ذلك فرسه جدار الحائط وغاب . ويذكر ابن شهيد لأبي بكر أنه كلما أرتج عليه ، أنشد

---

[1] لم يعثر على هذه الرسالة كاملة في كتاب ، وإنما حفظت ذخيرة ابن بسام أكثرها في المجلد الأولا من القسم الأول ص/ ٢١٠ وما بعدها (راجع الأدب الأندلسي د. هيكل ص/ ٣٧٧ وما بعدها) .

الأبيـــات ، فيتمـــثل لـــه صاحبه الجني زهير بن نمير فيعين قريحته وينطق لسانه ، حتى تأكدت الصحبة بينهما .

بعـــد ذلـــك التمهيد ينتقل إلى صلب القصة ، فيذكر أنه تذاكر يوماً مع تابعـــه هـــذا فتـــناولا أخبار الشعراء والخطباء وأصحابهم من التوابع والـــزوابع ، وسأل ابن شهيد صاحبه قائلا : هل من حيلة إلى لقاء من اتفـــق منهم ؟ فقال له زهير : حتى استأذن شيخنا . فطار ثم عاد وقد أذن له . فقـــال لابـــن شهيد حل علي متن الجواد فصار ابن شهيد مع تابعه عليه ثم سار بهما كالطائر .. حتى أتى أرض الجن وهناك طاف به تابعه على صاحب امرئ القيس وصاحب طرفة وصاحب قيس بن الخطيـــم من الجاهليين ، ثم على صاحب أبي تمام وصاحب البحتري وصاحب أبي نواس وأبي الطيب من الإسلاميين ، وابن شهيد في كل لقـــاء يصور الجو الذي لقي فيه تابعة الشاعر .. ثم يسمع منه وينشده وينال آخر الأمر إعجابه .(١)

والنـــبع الحقيقي لهذا النوع من القصص هو قصة معراج النبي محمد (ص) حيث كانت أول قصة في التراث العربي ، ينتقل فيها البطل إلى عـــالم آخـــر على ظهر فرس يسابق الريح ، وفي صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو إلى جو من أجواء ومشاهد لا تعرف دنيانا نحن .

ونعـــود إلى رسالة ابن شهيد فنقول :(٢) إن أسلوبها يمثل أسلوب النثر الخـــالص فـــي فـــترة الفتنة بالأندلس أصدق تمثيل ، فهو أسلوب فيه تأثيرات لطريقة بديع الزمان التي تميل إلى توشية الآسلوب بالمحسنات المجتلـــبة وخاصة السجع ، والتي تهتم كثيراً بالوصف وقد كانت آثار بديـــع الزمان وطريقته ، وكان ابن شهيد مولعاً بمعارضته في بعض

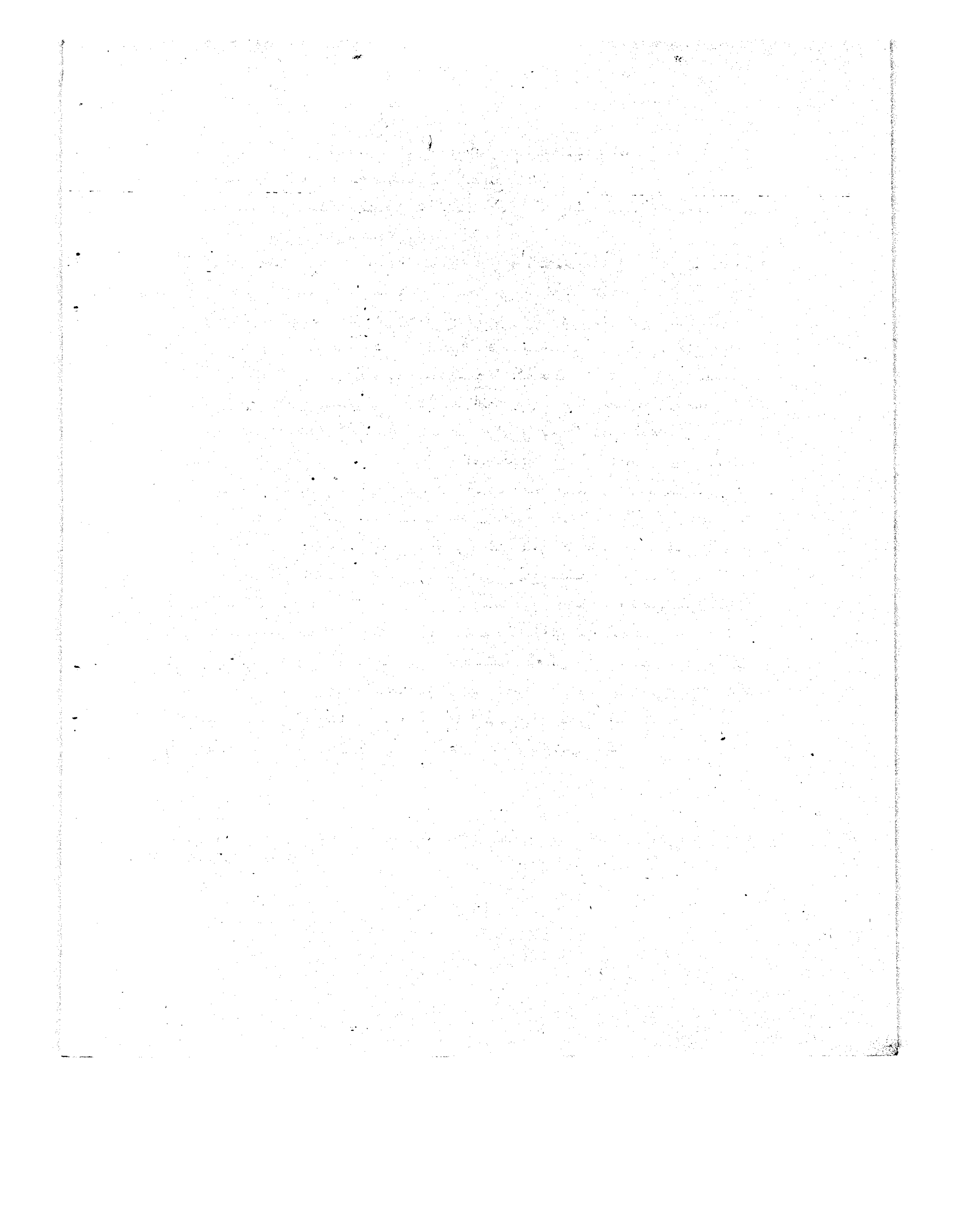
---

(1) راجع بقية الرسالة في الأدب الأندلسي د. هيكل ص ٣٧٩ وما بعدها .
(2) المرجع السبق ص/ ٣٨٧ .

رسائله كرسالته في وصف البرد والنار والحطب والحلواء ، فمثل هذه الرسائل جاءت معارضة لمقامات البديع .
وقد ظهرت في هذه الحقبة كتابات لابن شهيد متصلة بالنقد الأدبي وكتابات لابن حزم في فلسفة الحب .
ولعلنا ندرك مما سبق : أن التأليف الأدبي(**التصنيف**) : كان معدوماً في الطور الأول ، ولم يتسع مجاله إلا بعد أن اندفقت ثقافة المشرق العباسي على الأندلس، فهب أدباؤها يجارون المشارقة في كل فن وفي كل علم ، من لغة وعلوم طبيعية ، ورياضية وفلسفية ، وتاريخ وجغرافيا .وقد تعددت المؤلفات الأدبية فمنها المجاميع " كالعقد الفريد " لابن عبد ربه ، و" الذخيرة " لابن بسام ، و" قلائد العقيان " و" مطمح الأنفس " لابن خاقان . ومنها النقدية ككتاب " التوابع والزوابع " لابن شهيد .
ولما تقلد المغاربة من المرابطين والموحدين زمام الحكم في الأندلس ، كان النثر قد بلغ أوجَه ، فبدأت تدب فيه عوامل الانحطاط وذويت نضارته تحت زخرف الصناعة اللفظية الممقوتة تارة ، وتحت نار الفتن والحروب حيناً آخر . وفي عهدهم اضطُهد بعض أصحاب الآراء والنحل المذهبية إلا أن الموحدين ترخصوا في مطاردة الفلسفة وعلومها فنبغ فيها أفاضل من الحكماء والأطباء الكميائيين مثل ابن رشد والباجي وابن زهر ، ثم ضعفت النهضة العلمية ، واستمرت الحال كذلك مدة يتخللها بعض فسحات انتعاش في عهد ابن الأحمر ، وقد أطلق على هذه الحقبة (عهد يقظة الموت) حتى أباد الأسبان المسلمين من الأندلس ، وأحرقوا كتبهم ومحوا آثارهم وما سلم من كتبهم إلا ما كان قد نقل قبل الجلاء منها أو جهل العدو مكانه [1]

---

[1] راجع المجمل في تاريخ الأدب العربي ص/١٤٩ طه حسين ، أحمد الاسكندرى ، أحمد أمين علي الجارم ط/ القاهرة ١٩٣٠ م.

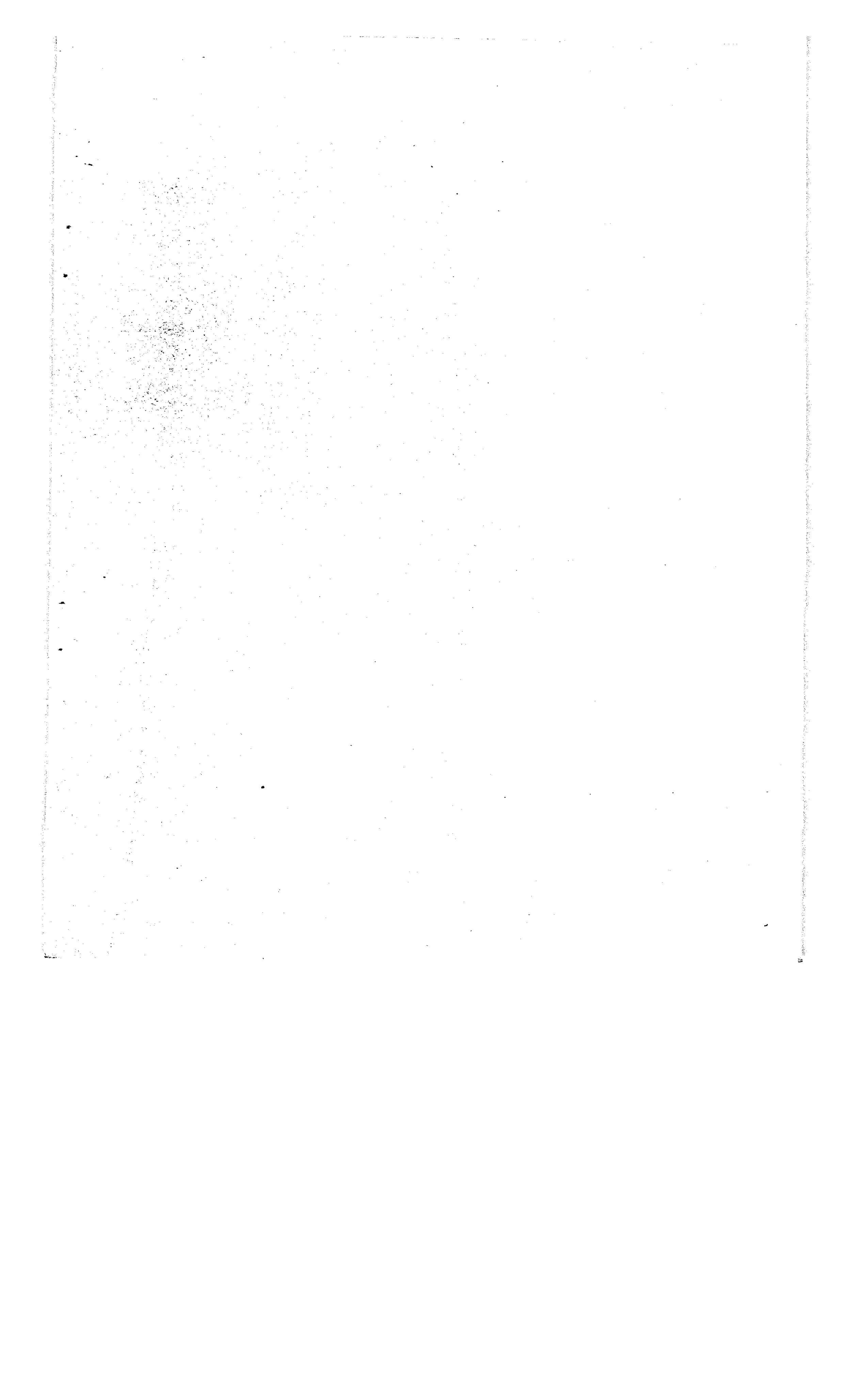


الباب الثالث

من أعلام الأدب الأندلسي

الفصل الأول

تطور التقليد



ابن عبد ربه الأندلسي :(٢٣٦ــ ٣٢٨هــ/ ٨٦٠ ــ ٩٤٠م)

هــو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، شاعر عبد الرحمن الناصــر وكــان جده "سالم" مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل ثاني خــلفاء بني أمية في الأندلس ، ولد في قرطبة سنة ٢٤٦هــ وترعرع فيهــا ، ميــالاً للعــلم والأدب فــبرع في الفقه والتاريخ واطلع على الموســيقى والطب وأتقن الشعر والكتابة وعاصر من خلفاء بني أمية محمــداً الأول والمــنذر وعــبد الرحمن الثالث ومدح هؤلاء الأمراء فأكــرموه وممــا ينقل عنه أنه كان في أيام الصبا لاهياً مولعاً بالغناء فــنظم الشعر في الغزل والتشبيب ، ولما داهمته الشيخوخة فزع إلى ربــه ، ونــدم إلى سالف حاله ، ففعل مثل أبي نواس وغيره ، وأنشأ القصائد الزهدية على أوزن شعره الغزلي وقوافيه ، ليمحص الله عنه ذنوبه أي يطهره منها ولذا سميت " الممحصات " وتوفي ابن عبد ربه سنة (٣٢٨هــ) بعد أن أصيب بالفالج .

آثــاره : اشــتهر ابــن عبد ربه بالشعر وليس له ديوان ، ولكن آثاره الشعرية كانت غزيرة ، إذ رأى له الحميدي على ما روى ياقوت أكثر مــن عشرين جزءاً جمعت للحكم بن عبد الرحمن الناصر ، ومعظمها مكتوب بخطه وقد فقد منها القسم الأكبر ، فلم ينقل إلينا سوى ما دوَّنه لــه الثعالبي في يتيمة الدهر. وكانت أغراض شعره الغزل والتشبيب والوصــف والمديــح والرثاء والتاريخ والزهد والحكم . وله في النثر كتاب العقد الفريد الذي قصره على ٢٥ باباً ، جعل لكل بابين منها اسم جوهــرة ، لتقابــلهما بالنسبة إلى الواسطة ، فنظمت بائتلاف الجواهر قــلادة جميــلة ، وموضــوعات الكتاب: اجتماعية وسياسية وأخلاقية وأدبية وتاريخية . ولقد تبع فيه ابن عبد ربه قاعدة مقررة في الأدب ، ونهجــاً مطــروقاً سلك قبله ؛ لأن الأدباء كانوا يعرفون الأدب ، كما أورد ذلك ابن خلدون ، بأنه " حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من

كـــل علم بطرف " . وقد قصره المؤلف على أخبار المشارقة ، ولعل السـبب في ذلك أن الشرق في نظر الأندلسيين موطن اللغة والأدب ، تحـتل مؤلفاته المكان المرموق ، وإليه تتجه بالأنظار . وقيل إنه لما وقع الكتاب في يد الصاحب بن عباد وأقبل عليه ينشد أدباً جديداً طواه آسـفاً ، لما رآه خالياً من أدب الأندلس ، وقال : " هذه بضاعتنا ردَّت إلينا " [١]

سمات أدبه : أولع بمحاكاة أهل الشرق ، ولم يساير النزعة التجديدية فـي بـلاده ، وهي بعد ضئيلة ضعيفة ، فكان شعره متيناً محكماً ولن آثار التجديد لم تظهر فيه بيِّنة واضحة . وحاول ابن عبد ربه أن ينشئ ملحمة شعرية في قصيدته المتضمنة أخبار عبد الرحمن الناصر والتي تـربو على أربعمائة بيت ، ولكنه أخفق لضعف النفس الشعري فيها، فهي إلى النوع التعليمي أقرب منها إلى النوع الخيالي أو الوجداني . وهذا أنموذج من شعره في وصف انتصارات الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط على الثائر بن حفصون ، يقول :[٢]

ومُغربة تغبِّرُ في النقع كمتـهـا ... وتخضر طوراً كلما بلَّها الرشح[٣]
تطير بلا ريش إلى كل صيحـة ... وتسبح في البر الذي ما به سبح
عليها من الأبطال كل ممارس ... يرى أن جد الحرب من بأسه مزح
وكان ابن حفصون يعد جيـاده ... سراحين قبل اليوم فهي لنا سرح
نجا مستكناً تحت جنح من الدجى ... وليس يؤدى شكر ما أنعم الجنح

---

(1) راجع حنا الفاخوري ص /٨٢٦ وما بعدها .و المقتبس من أبناء أهل الأندلس لأبي مروان حيان بن خلف ابن حيان ص٤٣ وما بعدها نشر المستشرق الإسباني ملشور أنطونيا ط/باريس ١٩٣٧م مصور عن مخطوط مكتبة بودلين باكسفورد .

(2) المقتبس من أبناء أهل الأندلس لأبي مروان حيان بن خلف ابن حيان ص/ ٩٧- ٩٨ .

(3) المغربة : الخيول السريعة العدو ، والكمت من الخيل ج كميت وهو ما خالط حمرته سمره ،.

ففـــي هـــذه القصيدة مزجٌ بين الطبيعة التي استلهم الشاعر صورها الفاتنة ووصفٌ الخيل المحاربة ، السريعة كالطير في خفته ، كما نرى صـــورة الأبطـــال فوق الخيول وهم الذين يرَون في الحرب مزاحاً ولهـــواً ، فلا يهابون ، وإنما ينطلقون انطلاقهم للهو والمتعة .. وهذا الغـــرض الشـــعري (الوصف) وإن كان قديماً تقليدياً إلا أنه طوَّره وتوسع فيه . وأكثر شعره ترى فيه البساطة والغنائية ، ولا تظهر فيه محاولـــة لتعقيد أو تفلسف .. ويبلغ من السهولة أحياناً أن يذكر جزءاً من البيت فيوشك أن يكمله السامع .[١]

ولقد قامت **شهرة ابن عبد ربه في الكتابة** ، على كتاب " العقد " الذي تواطـــأ الأدبـــاء على نعته بالفريد لجودته ونفاسته . وكانت غايته في العقد أدبية لا علمية ، فهو على ما قال محمد سعيد العريان : " يروي النادرة لحلاوة موقعها لا لصحة الرأي فيها ، ويختار الخبرلتمام معناه لا لصـــواب موقعه عند أهل الرأي والنظر والاختصاص .. ذلك كان شـــأنه وشـــأن المؤلفين من قبله ومن بعده ، على حدود متعارفة بينهم ورسوم موضوعة " [٢]

وقد كان لكتاب " **العـــقد** " أثر كبير في مؤلفات بعض أهل المشرق ، فأخذ عنه القلقشندي في صبح الأعشى ، والبغدادي في خزانة الأدب ، وابـــن خـــلدون فـــي المقدمة وغيرهم ممن دوَّنوا القصص والنوادر والأخبار . فكان هو ويحيى الغزال ، طرفا الأدب في القرن الثالث[٣]

وأســـلوب ابن عبد ربه : جزل في المقدمات ، محكم قصير الفقرات يـــنمقه السجع عن غير التزام ولا كثرة فإذا ما بلغ المؤلف موضوعه أطلق لقلمه العنان فجاء كلامه مرسلاً طبيعياً لا تعمُّل فيه ولا زخرف فتقصر جمله وتطول حسب مقتضى الحال .

---

(1) د. أحمد هيكل ص٢٢٦ .
(2) المرجع السابق ص٨٢٨ .
(3) تاريخ آداب العرب للرافعي ج٣ ص ٢٦

محمد ابن هانئ الأندلسي: (٣٢٦ـ٣٦٢هـ/٩٣٨ـ٩٧٣م)

هـو أبو الحسن محمد بن هانئ الأزدي ، ولقب بالأندلسي تمييزا لـه عن ابن هانئ المشرقي (أبي نواس) ويتصل نسب الأندلسي من جهـة أبيـه بالمهلب بن أبي صفرة . وكان أبوه يستوطن إحدى قرى شمال إفريقيا ثم هاجر إلى الأندلس حيث ولد ابنه محمد بمدينة أشبيلية فنشـأ فـي تـربة خصـيبة بالعلم والأدب إذ كانت أشبيلية آنذاك في عصرها الذهبي، تزخر بالثقافة والحضارة ، فنظم الشعر ، وبرع فيه غيـر أنه مال إلى اللهو والمجون ، يقطف من ثمارها دون رادع ولا وازع ، وغالى في قوله ، حتى اتُهم بالزندقة ، ولا سيما وأنه كان من طلاب الفلسفة التي ينكرها الناس في الأندلس ، فنقم عليه أهل المدينة وأوعـز إليـه عاملها بالنزوح عنها ؛ ليهدأ ثائر القوم ، فجاء شاعرنا المغرب . وقيل إن هجرته كانت لسبب سياسي ، وهو اتصاله بالدعوة الفاطميـة [١] ولعـل صـلته المباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجـرته إلى شمال إفريقيا ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة ـ كما يدل على ذلك شعره ـ لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هانئ من الأندلس [٢] ويرجح أنها كانت لسبب سياسي .

وفـي المغـرب ، اتصـل شاعرنا بجوهر الصقلي ، قائد المنصور الفـاطمي فمدحه ، وساعده الحظ ، فقرَّبه " المعز بن المنصور" إليه ، وأغدق عليه العطايا ، ولما فتح " جوهرالصقلي " مصر ، وراح إليها المعـز تأخر عنه الشاعر ريثما يأخذ عياله ويلحق به ، وفيما هو في طريقه إلى مصر وقف في برقة ضيفا على رجل ، ثم راح يسكر فنام في الطريق وأصبح ميتا ، وقيل : إنه وجد في ساقية من سواقي برقة

---

(1) انظر في ترجمته الأدب الأندلسي د. هيكل وجذوة المقتبس للحميدي رقم ١٥٧ ووفيات الأعيان لابن خلكان ج٢ص٦،٥ ونفح الطيب للمقري ج٢ ص٢٦٤-٢٦٧ .

(2) انظر تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ د/ زاهد علي ص/ ٢٠ (مقدمة)

مخنوقاً بتكة سراويله ، وأغلب الظن أن ابن هانئ قد قتل قتلاً سياسياً ، عــلى يد بعض أنصار قرطبة المناهضين للفاطميين [١] وهكذا كانت نهايته غامضة وعلى أية حال توفي ابن هانئ ، وقد بلغ من العمر ستا وثلاثين عاما ، وقيل اثنتين وأربعين ، على خلاف في ذلك .

آثاره : ترك جملة من القصائد جمعت في ديوان طبع في مصر ثم في بيروت عام ١٨٨٤. وأكثره في المدح وفيه هجاء ورثاء ووصف .

سماته الأدبية : يعد ابن هانئ في الطبقة الأولى بين شعراء الأندلس ، وقد قال المعز لدين الله الفاطمي عندما بلغه خبر وفاته : " هذا الرجل كنا نفاخر به شعراء الشرق ، فلم يقدَّر لنا ذلك " [٢]

ولعــل أهــم تــلك الســمات الفنية التي تميز شعر ابن هانئ ، برغم اتجاهــه المحافظ الجديد ، سمتان : هما : الحــدَّة الشعرية والمذهبية السياســية . أمــا الحِدة الشعرية ، فقد كانت تصل أحيانا إلى درجة لا يقبــلها العقل ، وقد يرفضها الذوق ويأباها الدين ، فهو يقول في كرم بعض ممدوحيه :[٣]

من كان أول نقطة في مهــده * أن قال أهلاً للعـُفاة ومرحبا !

وربمــا أمعــن في المغالاة حتى إذا مدح جعل الممدوح أفضل الناس جميعاً بل جمع فيه صفات الكمال وبلغ به إلى شيء من الألوهة : [٤]

هو علة الدنيا ومن خلقت له — ولعلةٍ ما كانت الأشــياء
ليست سماء الله ما ترونها — لكنَّ أرضاً تحتويه سمــاء
نزلت ملائكة السَّماء بنصرهِ — وأطاعه الإصباحُ والإمساء

---

(1) المرجع السابق ، ص٢٢ (مقدمة) .
(2) الأدب الأندلسي مشاهير الأدباء حنا الفاخوري ص ٨٣٠
(3) الأدب الأندلسي د/ هيكل و ديوان ابن هانئ ص ١٨ .
(4) ديوان ابن هانئ ص ٥ ط بيروت

ويقول في تقديس ممدوحه :[١]

إمام رأيت الدين مرتبطاً به فطاعته فوزٌ وعصيانه خسْر
أرى مدحه كالمدح لله إنه قنوت وتسبيح يُحط به الوزر

ويقول في سلطان ممدوحه : [٢]

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ * فاحكم فأنت الواحد القهارُ

والحدة الشعرية كأية مبالغة ، أي تكون مقبولة ، حينما تكون عمقاً في الفكـــرة وصـــدقاً فـــي التجربة ولا تتعارض مع الدين أما حين تكون مـــبالغة يرفضـــها الـــذوق أو العقل أو الدين فإنها تأتي سخيفة ساقطة ككثير مما قاله ابن هانئ في ممدوحه ، وخاصة المعز الفاطمي

أولـــع شـــاعرنا بطريقة المتنبي وسار على نهجه ، فأكثر من وصف الجيـــوش والمعـــارك كما فعل المتنبي ، ولربما حكاه في قوة أفكاره وأوزانـــه وألفاظه ، ولربما تدفعه الحدة الشعرية إلى إيثار اللفظ الفخم والـــرنين الواضح إلى الصخب والإتيان فيه بالغريب من الألفاظ وهذا ما حمل أبا العلاء على الاشمئزاز من الموازنة بين المتنبي وابن هانئ وقـــد نعت ابن هانئ بقوله : " ما أشبّهه إلا برحى تطحن قروناً لأجل القعقعة التي في ألفاظه " [٣]

ومهما يكن من أمر ، فإن ابن هانئ ، وإن دعاه الأدباء متنبي الغرب ، فقـــد بقي بعيداً عن أبي الطيب بعد التقليد عن الطبع . فقعقعة ألفاظه ، وصـــوره الـــبرّاقة ، وتشبيهاته الغريبة تستر غالباً معاني معروفة أو ضعيفة أو غير ذلك .

---

(1) ديوانه ص/ ٨١ .
(2) ديوانه : ص/ ٨٨
(3) وفيات الأعيان ج ٢ ص/٥

أمـــا المذهبية السياسية : فتبدوا في كون ابن هانئ شاعراً مذهبياً لا يؤمن بالفن فقط ، وإنما يستخدمه في تدعيم مذهب يميل إليه ، ويدعو له ، فابن هانئ قد اتصل بالحركة الشيعية وهو بالأندلس وكانت السبب فـــي خـــروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم إنه قد اتصل بزعماء الفاطميين اتصالاً مباشراً ، وعمل للدعوة الفاطمية فكان لسانها الـــناطق .. ومـــن هنا بدت في شعره مصطلحات الشيعة وآراؤهم ، وبـــدت في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه في كـــثير من المواطن على الحجاج والجدل والتعليل والتدليل ، ومحاولة الإقـــناع المـــنطقي لا التأثير الوجداني .. فهو يقول مشيراً إلى فكرة الإمامة :[1]

إمام عدلٌ وفتىً في كل ناحيـــة * كما قضوا في الإمام العدل واشترطوا

ويقول في فكرة ميراث آل البيت للحكم :[2]

هو الوارث الأرض عن والدين * أب مصطفى وأب مرتضى

ويقول في فكرة تقديس الإمام :[3]

من شعلة القبس التي عُرِضت على * موسى وقد جازت به الظلماء

وكـــنا نـــتوقع أن يمـــثل ابن هانئ بيئته الجديدة ، ولكن عوامل التقليد تســـلطت عليه ، فاصطبغ كثير من شعره باللون البدوي في الأسلوب والمعـــاني : فهـــو يجوب بمخيلته الجزيرة العربية ، ويتفقد الحبيبة ، ويصـــف الصحاري برمالها وآرامها وعقبانها وإبلها وخيلها إلا أنه لم

---

(1) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة وديوان ابن هانئ ص/ ٩٧ .
(2) السابق والديوان ص/ ١٩٢ .
(3) السابق والديوان ص/ ٥ ، ٦

يـــنس مـــا حوله تماماً فتخللت مدائحه أوصاف شتى للطبيعة الأندلسية ومـــباهجها . وعــلى الجمـــلة فشعر ابن هانئ لا يُسمعنا سوى صدى خافت للأنغام الجديدة لا يتعلق به السمع .[١]

۞۞۞۞۞۞

<u>ابن شُهيد :</u> (٣٨٢ــ ٤٢٦هــ/٩٩٢ــ ١٠٣٤م)

هو أبو عامر، أحمد ابن أبي مروان بن شهيد من أسرة شريفة لها مكانـــتها عـــند الخلفاء والأمراء . نشأ في قرطبة وتربى في أحضان النعمة فقد كان البيت الذي ينتمي إليه بيت سراء وثراء ونفوذ وسلطان وكـــانت صلة هذا البيت بولي الأمر " المنصور بن أبي عامر" قوية الوشائج ، بحيث سمحت للصغير أحمد أن يلهو بين يدي المنصور وأن يحمـــل عـــلى أكتاف ابنه عبد الرحمن .. وكان للتدليل الكثير والترف الـــبالغ والنعمة الموفورة أثر كبير في نشأة أبي عامر ، فهو لم يؤخذ بجـــد إلى التعـــليم ، ولم يحمل في صرامة على الدرس ، ولا على ما كـــان يقبل عليه معاصروه من علوم الحديث والتفسير والفقه والنحو ، وإنمـــا أقـــبل على ما يلائم ترفه ويناسب طبعه ومواهبه ، فأقبل على الأدب ، يـــتزود من قديمه وحديثه ، ومن شعره ونثره وحفظ من ذلك كلـــه واخـــتزن من المعاني والأفكار والصور والأساليب ، ما حرك ملكـــته وأنطق لسانه وأجرى قلمه منذ حداثته ، وهو إلى ذلك ظريف المعشـــر ، يهوى النكتة والدعابة ويحب مجالس الأنس ولا يحجم عن المجون والخلاعة .[٢]

---

(1) الأدب الأندلسي مشاهير الأدباء حنا الفاخوري ص ٨٣١

(2) انظر ترجمته وأخباره وأشعاره في : جذوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٢٣٢ وفي الزخيرة لابن بسام القسم الأول المجلد الأول ص/١٦١٠ ومابعدها ونح الطيب للمقري ج١ ص/ ١٩١-١٩٢ .

اتصـــل ابن شهيد بالمؤتمن "عبد العزيز العامري " صاحب قرطبة ، وكـــتب له ، وكان شاعرنا معاصراً لابن حزم ووزيراً مثله في الدولة العامـــرية ، وكـــان ابـــن شـــهيد وابن هانئ وابن دراج أبرز شعراء العامـــريين ، وقـــد مرض في آخر أيامه بالفالج ، وظل عاماً يقاسي المرض حتى توفي سنة ٤٢٦هـــ .

آثـــاره : لم يتوفـــر " ابن شهيد "على الشعر كما توفر على النثر ، فلم يؤثر شعره مجموعاً في ديوان ، وإنما خلف قصائد ومقطوعات مدحية ووصـــفية وغزلية حفظها لنا من دونوا تاريخ الأدب الأندلسي ، كابن بســـام وابـــن خاقان والثعلبي ، إلى أن حقق أشعاره الأستاذ " يعقوب زكي " في ديوان له .

يقـــول ابـــن بسام عن شعره :" إن هزل فسجع الحمام وإن جدَّ فزئير الأســـد الضرغام نظم كما اتسق الدرر على النحور ، ونثر كما خلط المسك بالكافور .. وقد أخرجت من أشعاره الشاردة ، ورسائله الباقية الخالده ، ونوادره القصار والطوال ، وتعريضاته السائرة سير الأمثال ما يحل له الوقور حباه ، ويحن معه الكبير إلى صباه " [١]

ومن لطائف أشعاره قصيدة طويلة ، بعث بها إلى المؤتمن العامري ، وفيها يصف الطبيعة على طريقة المحدثين ، فيصف الروض والطير والحـــب والخمـــر ، والـــليل والفجـــر وحديث الحسان المبكرات إلى الـــروض ، وهو يصور كل هذا في سهولة لفظ وخفة روح ، ومزج بين الطبيعة وغيرها من الأغراض ، فيقـــول:[٢]

سهر الحيا برياضها ... فأسـالها والنـوَّر نائـــم
حتى غدت زهراتها ... كالغيـــد باللجـــج العـــوائم

---

[1] الذخيرة لابن بسام القسم الأول ، المجلد الأول ص/ ١٦١ .

[2] المرجع السابق ص/ ١٦٧ وما بعدها ، وديوان ابن شهيد تحقيق يعقوب زكي ط/ دار الكاتب العربي ص٨٥ والقصيدة رقم ٣ .

من ثيـِّبات لم تبـل	كشف الخدود ولا المعاصم
بكر الحسان يردنها	من كل واضحة الملاغم[3]
وضحكن عجباً فالتقت	فيها المباسم بالمباسم
ورنتْ فبادر نرجس	يشكو عماه إلى حمائم
وترنمت فيها القِـيا	نُ لنا ورجَّعت البواغم
قمنا نصفق بالأكفِّ	لها ونرقص بالجماجم

فالقصيدة صورة ناطقة لروضة أصابها وابل ليلاً ، فتطايرت من نومها زهراتها ، على صفحة الماء ، ما بين متفتحة كخدود الحسان ، وصغار لم تفتح بعد كأبكار غيد خفرات تستترن خجلا ، وحياء.. إلى آخر مافي القصيدة من تشخيص ، ويكثر عند ابن شهيد ارتباط الوصف بالمديح والتغزل ، وكذلك عند كثير من شعراء الأندلس .
ولعل أهم ما يميز أسلوبه سلس العبارة لما فيه من الدعابة والرقة ، وأكثر لهوه مقبول خالٍ من الفحش والهُجر .

أمـا **آثاره النثرية** : فرسائل تناول فيها أغراضا شتى . منها رسالته في الحلواء ، حيث ذهب مذهب الهمذاني في مقامته المضيرية ، ورسالته في وصف البرد والنار والحطب ، ورسالته المدعوَّة " حانوت عطار " وما كتبه على لسان الحيوان ووصفه لثعلب وبرغوث وبعوضه ، وأشهر رسائله على الإطلاق رسالته " التوبع والزوابع " وقد ضمَّنها أشعاراً متفرقة ، وهي شبيهة برسالة الغفران لأبي العلاء المعري ، وأسلوبه فيها أقرب إلى الجاحظ ، وفيها يقبل إلى بركة في وادي الجن فيري حولها طائفة من الحُمر والبغال ، فتتقدم بغلة عليها

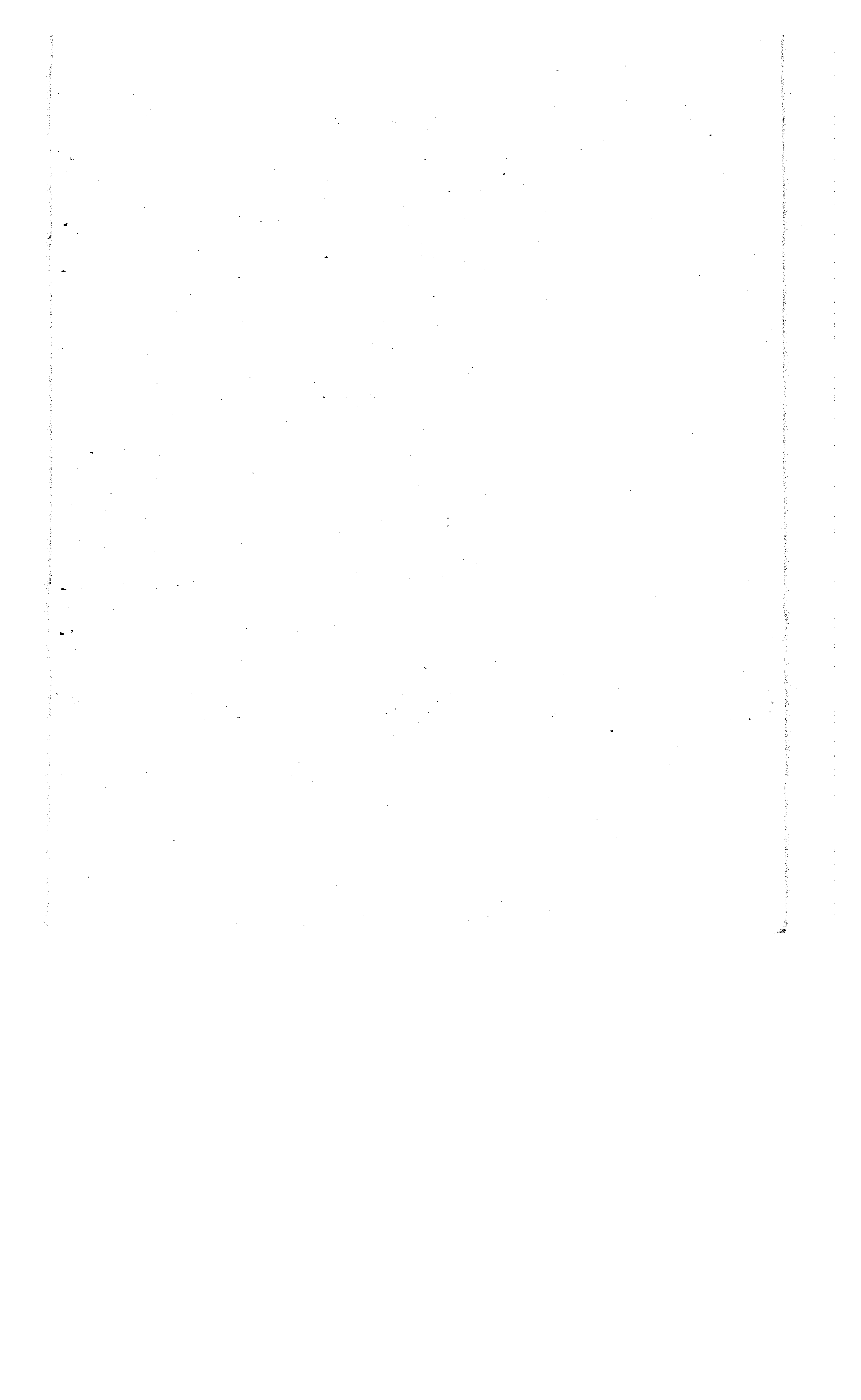
(3) الملاغم : ما حول الفم

الجـــلُّ والبرقع ، فتنشده شعراً وتقول له : " أما تعرفني أبا عامر ؟ " فيقـــول: " لـــو كـــانت ثَمَّ علامة " ، فأماطت لثامها فإذا هي بغلة أبي عيسى ، والخال على خدها . فتباكيا طويلا ، وأخذا في ذكر أيامهما ، وقد سبق لنا الحديث عن جانب من تلك الرسالة في الكلام عن أحوال النثر ، وعلى كلٍ : فكلام ابن شهيد مسجع من غير اطراد ، فيه كثير من العبارات الغامضة ، إلا أن كاتبنا لم يمعن في استعمال البديع .
فهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة هي شاهد على سعة اطلاع صاحبها ، ولعل أهم ما يميز نثره : ميلـُـه الخاص إلى الفن القصصي ، وأسلوبه المســـتظرف ، حيث يفيض بالفكاهة ، حتى قيل عنه : " إنه في تنسيق الهزل والنادرة الحارة أقدر منه على غير ذلك "[١]
وبعد : فهؤلاء الشعراء الثلاثة ، يمثلون الاتجاه المحافظ المجدد ، أي الذي تسلطت عليه عوامل التقليد ، بيد أنه توسع فيها فكان صورة من صور تطور التقليد .

۞۞۞۞۞۞

---

(1) راجع الأدب الأندلسي ، مشاهير الأدباء ص/ ٨٣٢ .



الفصل الثاني

بين الانتقال والتجديد

أولاً: طور الانتقال

أولاً : طور الانتقال :

ويمثل هذا الطور اثنان من الأدباء وهما : ابن زيدون والمعتمد بن عباد . **أولا : ابن زيدون :** (٣٩٤- ٤٦٣هـ/ ١٠٠٣ - ١٠٧١م)
هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي ، من نسل قبيلة مخزوم الذين رحلوا إلى الأندلس مع الفتح ، وقد ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ في عهد الدولة العامرية ، وكان أبوه أديباً فقيها فأورث ابنه حب الأدب هـ ، كما أستقى ابن زيدون ثقافة واسعة من معين العصر الزاهي الذي عاش فيه ، وألمَّ بطرف من كل العلوم ، وقد أسهم الشاعر في الفتنة التي زلزلت أساس الدولة الأموية ، وقامت عاى أنقاضها ملوك الطوائف (١٠٣٠ - ١٠٦٨م) واقترب ابن زيدون من مؤسسها أبي الحزم بن جهور في قرطبة فأنَاله لقب " ذي الوزارتين " ومن أهم أحداث حياته : حبه لولادة بنت الخليفة المستكفي سنة ٤٢٢هـ وهو في سن التاسعة والعشرين وكان ابن عبدوس وزيرُ " ابن جوهر " ينافسه في حب ولادة فجرت بينهما منافسات ، فوشي به إلى ابن جوهر ، إذ نسب إليه مؤامرة للعودة بزمام الأمور إلي الدولة الأموية ، فأودعه الملك السجن سنوات ، فأنشأ ابن زيدون كثيراً من القصائد والرسائل ، يستعطف بها ابن جوهر ولما لم يظفر بنيل عفوه فرَّ من السجن ، ثم عاد فحظي عند " أبي الوليد" ابن الملك - بعد وفاته - بمكانة عالية ، ولكنه خاف وشيَ الحُساد وأعدائه فراح يتنقل في البلاد الأندلسية ، حتى اتصل أخيراً بالمعتضد ، صاحب إشبيلية ، فألقى إليه هذا مقاليد الوزارة . !
ولمـــا ملك المعتمد بن المعتضد قرَّب إليه الشاعر وتوصل بتدبيره إلى الاســـتيلاء عـــلى قرطبة فانتقل إليها معه ، وجعلها قاعدة ملكه . ولما شـــبت ثورة أشبيلية على اليهود سعى أعداء ابن زيدون لدى المعتمد

ليرسـله إليها ، ففازوا بإقصائه . وهناك في أشبيلية وافته المنية سنة ٤٦٣هـ فدفن في احتفال مهيب [١]

آثـاره: لابن زيدون ديوان شعر نشره في مصر كامل الكيلاني وعبد الرحمن خليفة ، وهو يضم قصائد مدح ورثاء وعتاب وغزل ووصف ولـه أيضـاً مجموعة من الرسائل أشهرها رسالته الاستعطافية التي حـاول فيهـا أن يستميل بها قلب " ابن جوهر " ليخرجه من السجن ، ورسالته الهزلية التي جعلها جواباً على لسان ولاّدة إلى ابن عبدوس ، وكان هذا قد سعى في استمالتها إليه .

سـماته : ابـن زيدون من أكبر شعراء الأندلس ، وشعره الوجداني مغمـور بعاطفـة قوية ، ملتاعة وصادقة ، تسيل في أبيات كلها رقة ولعـل أشـهر قصائده في هذا الباب نونيته التي يشكو فيها وجده إلى ولادة [٢] وفيها يتغنى بالطبيعة في ظلال هذا الحب ، فيقول :

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا — وناب عن طيب لقيانا تجافينا
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا — أنساً بقربـهمُ قد عاد يبكينا
ليُسْـقَ عهدُكم : عهدُ السرور فما — كنتم لأرواحنـا إلا رياحينا

---

(1) راجع الأدب الأندلسي مشاهير الأدباء ص ٨٣٦ وما بعدها .

(2) هـي مـن مـولاة إسبانية ، وكانت بيضاء اللون حمراء الشعر زرقاء العينين ، لا تلتزم الحجاب المعتاد للنساء فاتخذت في بيتها ناديا " صالونا " يجتمع فيه الأدباء والشعراء ، وكانت هي الأخرى قادرة على الشعر تسمع منهم وتسمعهم ، وكانت حادة المزاج قاسيةصريحة ، فما أن رآها ابن زيدون ، وجالسها حتى ملأت عليه قلبه . وقد رَووا لها قولها :

أنـا والله أصلـحُ لـلمعـالـي — وأمشي مشيتي وأتيهُ تيـها
وأمكـّن عاشقي من صحن خدي — وأعطي قبلتي من يشتهيـها

(راجع الذخيرة ج /١ ، ونفح الطيب ج٢)

إلى أن يستسقي ساري البرق لقصر الحبيبة ، ويسوق لها التحية مع أحب النسيم ، فيقول :

يا ساريَ البرق غادِ القصر فاسق بِه
من كان صِرفَ الهوى والودِ يَسقينا

ويا نسيمَ الصَّبا بلغ تحيتنا
من لَو على البُعد حياً كان يُحَيينا

وكذلك ، لابن زيدون — وهو العاطفي الصادق اللوعة ، الجياش الحنين — قصيدة [١] في وصف الطبيعة من خلال نوازعه وأشجانه تقرب كثيراً من الأدب العالمي في عصرنا الراهن ، وما سبقه من عهود الابتداع والتجديد ! وهي خطوة بديعة في أدب الطبيعة العربي ، ولعشاق الأدب الأندلسي أن يعتبروها مظهراً من مظاهر التجديد العاطفي المصور ، وقد اعتبرها بعض النقاد دليل حيوية ابن زيدون ، ومظهر ارتقائه الفكري بين معاصريه ، فهو يقول موجهاً حديثه لولادة:

إني ذكرتكِ بالزهراء مشتاقاً   والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله   كأنَّه رقَّ لي فاعتلَّ إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسم   كما شققت عن اللبات أطواقا[٢]
نلهو بما يستميل العين من زهر   جال الندى فيه حتى مال أعناقا

فهذه الصرخة اللهيفة قد ارتفعت على جناح الطبيعة إلى أفق وضيء ."

فابن زيدون مغرم بجمال الأندلس ، مولع بمرتع شبابه ، وحاضنة لهوه ، فإذا ما فاتته المتع ، جالت بخاطره الذكريات وعاوده الحنين والحسرة ، فيقول :

---

(1) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، د. رجب البيومي ص ٧٢ ، ٧٣

(2) اللبات :ج لبة بوزن حبة : المنحر .

أقرطبة الغراء هل فيكِ مطمع ؟
وهل كبد حري لبينكِ تنقَعُ [1] ؟
وهل لِلياليكِ الحميدة مرجعُ ؟
إذ الحُسنُ مرأى فيكِ واللهوُ مسمعُ وإذ كنف الدنيا لديكِ موطّأ !

وشاعرنا كثير التقليد ، يجري في مدحه مجرى المشارقة ، وكثيراً ما يستعير معانيهم في شعره ، فنونيته الشهيرة نفسها ، إذا ما استقريت معانيها ، قلما تقع منها على الجديد المستحدث . وكان ابن زيدون يعنى كثيراً باختيار ألفاظه وتنسيق عباراته ويحرص على الإيقاع الموسيقي ، ويكثر من تقليد البحتري حتى دعاه الأدباء " بحتري الغرب " وقد نحا نحوه في حسن النظم ، ودقة الانسجام واشترك معه في كثير من الصور.
وابن زيدون ،في نثره ولاسيما الأدبي منه كرسالتيه الهزلية والاستعطافية ، يميل إلى الإطناب والسجع ، ويورد الأمثال والأشعار حتى تكاد تكون رسائله منسوجة من أقوال الشعراء ، وأمثال العرب ، والتلميحات التاريخية والآيات القرآنية. وهو في رسالته الهزلية ينحو نحو الجاحظ في رسالة " التربيع والتدوير" ، فيقول لابن عبدوس : " إن بطليموس سوّى الاسطرلاب بتدبيرك ، وصور الكرة على تقديرك وبقراط : علم العلل والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك[2] وكلاهما قلدك في العلاج ، وسألك عن المزاج واستوصفك تركيب الأعضاء واستشارك في الدَّواء والداء .."
وعلى الجملة ، فابن زيدون يمثل طور الانتقال من الأدب الأموي إلى الأدب العباسي في الأندلس . فهو وإن لم يخلق جديداً ، أو إن طبع

---

(1) تنقع بالشرب : اشتفى .
(2) الحَدس : سعة الانتقال في الفهم والاستنتاج .

على غرار أهل المشرق ، فهو يحتل بين أدباء مصره وعصره مكاناً رفيعاً .

۞۞۞۞۞۞

ثانياً : المعتمد بن عباد : ٤٣١ـ ٤٨٨هـ/ ١٠٤٠ـ١٠٩٥)

هــو ابن المعتضد العبادي صاحب أشبيلية ، من ملوك الطوائف ينتمي نسبه إلى النعمان بن المنذر اللخمي آخر ملوك الحيرة . أصبح المعتمد وريث العرش بعد موت أخيه البكر اسماعيل ، وجلس فيه سنة ٤٦١هــ /١٠٦٩م واتخذ له وزيراً ابن عمار الشاعر، وكان هو نفسه شاعراً وكاتبا ، فتوافد إليه الأدباء والعلماء ، فأكرم مثواهم .

امتــلك قرطــبة واتســع سلطانه حتى بلغ مرسية ، ولكن خوفه من الأدفــنش مــلك قشتالة (الفونس السادس) جعله يستنجد بيوسف بن تاشــفين صــاحب مرَّاكش . ولكن بعد دحره الفونس وجيوشه ، عمل سراً على الاستئثار بالملك في بلاد الأندلس . فأثار الفتن على المعتمد، واســتحوذ عــلى قرطــبة فأشبيلية واستسلم المعتمد للأسر فحُمل إلى أغمــات قرب مراكش ، وهناك وافته المنية بعد أن قاسى مرارة الفقر والهوان .[١]

آثــاره : هناك أسباب كثيرة ، ألهبت شاعرية المعتمد بن عباد : فهو محــبٌ شرِّيب ، تغنى كثيراً بالحب ، وألهبت عواطفه الخمر ، ثم هو ممــن يعتزُّ بملكه وجاهه ، وقد ألهب الشعراء المادحون عواطفه ، ثم هــو قــد ابتلي بفقد ولدين له في الحروب ، كما ابتـُـلى بالأسر ، ثم بــزوال ملكه ، ثم بفقره وذلّه .. وينظر لحاله من جميع أنحائه فيرثي لهــا ويبكي عليها ؛ ولهذا كله وجدنا له قصائد كثيرة مبثوثة في كتب الأدب . !

---

(1) الأدب الأندلسي مشاهير الأدباء ص/ ٨٣٨ ، ٨٣٩ .

ومن ميزات شعره : صبغته الوجدانية الشخصية ، فليس شاعرنا بالمتكسب المتهافت على المال يجمعه عن طريق المدح ، ولا هو بالمتخذ الشعر حرفة وصناعة ، ولكن الشعر عنده أداة للتعبير عن مشاعره ، وعَمَّا توقد في صدره حوادث الدهر من عواطف واختلاجات . وهذا ما يجعل بينه وبين أبي فراس الحمداني شبهاً ، أوقف النقاد عنده . فقد وقع أبو فراس أسيراً في بلاد الروم ، وراح يبعث بقصائده إلى ابن عمه " أمير بني حمدان " شاكياً متوسلاً كي يفك أسره ، ثم طرق سمعَه ترجيع ورقاء هتوف ، تنوح دون أن تذوق من طارقات النوى ما ذاق أبو فراس ! فانطلق أبو فراس يبثها الشجن ويخبرها عما تجهل من أمره في آهةٍ هادئة ، فيقول :[١]

أقول : وقد ناحتْ بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل تشعرين بحالي؟
معاذَ الهوى ما ذقتِ طارقةَ النوى ولا خطرتْ منكِ الهمومُ ببال
أيضحك مأسورٌ ، وتبكي طليقةٌ ويسكتُ محزونٌ ويندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعي في الحوادث غالي

وشبيهاً بهذا ، فعلت الأيام ، بالمعتمد بن عباد . لقد ناءت عليه بكلكلها فذل وأسر ، ونفي وافتقر هو وأولاده بعد عزٍّ وملك ، فكان له من ذكريات الماضي السعيد جرح لا يندمل ، وقد وجد الملك الأسير أسراب القطا طليقة غير مقيدة فراح يبثها حزنه ، وهو يتمنى أن يكون مثلها حراً ، يسرح في فضاء الله الفسيح ؛ لذا فهو يدعو لها بالصون والعصمة ، ولأفراخها الصغيرة بالماء والظل :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررن بي سوارح لا سجنٌ يعوق وكبل
ولم يكُ والله المعيد حسادةً ولكن حنيناً إنَّ شكلي لها شكل
فأسرح لا شملي صريع ولا الحشا وجيع ولا عيناي يبكيهما ثكل

---

(1) ديوان أبي فراس ص/ ١٢٦ والقصيدة من الطويل .

ألا عصم الله القطا في فراخـــها * فإن فراخي خانها الماء والظل

ورغـــم هـــذا الشبه أرى أن " هذه التجربة الصادقة لا يمكن أن تكون تقـــليداً لأبـــي فـــراس وإنما هي شعور إنساني صادق يهتز به أديب حســـاس ، وهـــي بعد نموذج جيد لما نفتقده من أوصر التعاطف بين الإنســـان والطائـــر في أدبنا العربي ! وأي تعاطف حي أبلغ من قول الملك الآسير :

ألا عصم الله القطا في فراخها فإن فراخي خانها الماء والظل[1]

وشـــعر المعـــتمد ، من روح شعر ابن زيدون .. وكان ابن زيدون يمدح ابن عباد ، فلئن كان ابن عباد أرفع شأنا وأعلي نفسا فابن زيدون أغزر معني وأطول نفساً [2].

ويميـــل المعـــتمد إلى التشبيهات الملوكية ، نراها وهو يشبه الياسمين على غصونه الخضراء بالجوهرة بين أحجار الزمرد :

يا حبذا الياسمين إذ يزهر فوق غصون رطيبـــة نضر

قد امتطى للجمال ذروتها فوق بساط من سندس أخضر

كأنـــه والعيـــون ترمـــقه زمرد في خلابة جوهـــر

وشـــعر المعتمد ، سهل بسيط ليس فيه تعمل ولا تصنع ، لا تعدوه صـــور الخيال ولا رقة العاطفة ، فشاعرنا يستعطف أباه بعد أن هزم في موقعة ، فيقول :

أجِب نداء أخي قلبٍ تمـــــلكهُ أسىً وذي مقلةٍ أودى بها السهرُ

رضاكَ راحةُ نفسي لا فجعتُ به فهو العتادُ الذي للـــــدهر أدَّخرُ

هو المدام التي أسلو بها فـــإذا عدمتها عبثتْ في قلبـــيَ الفكَر

ويبدو له سخط والده كسحابة مطبقة لا يقشعها إلا الريح الرضي:

علتني من السخط الأليم سحابةُ فأغر بها ريحَ الرّضى كي تقشّا

---

(1) الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير د. رجب البيومي ص٦٧ .

(2) ظهر الإسلام ٣/١٨٠

ولما كان في الأسر كان شعره صوت الألم الشاكي في رصانة وإباء .
ولقد سار بين الناس ذكر هذا الملك الشاعر ، ولكن شهرته قائمة على ما أثارته حياته المنكوبة من الشفقة في النفوس أكثر مما قامت على فنه الأدبي.(١)

۞۞۞۞۞۞

ثانياً : طور التجديد

ويمكن أن يمثل هذا الطور أربعة أدباء وهم :

ابن حمديس الصِّقلي : (٤٤٧ ـ٥٢٧هـ/١٠٥٥ـ١١٣٢م)

هو أبو مَحمد عبد الجبار بن حمديس الأزدي الصقلي أحد وصافي الطبيعة نشأ بمدينة سرقوصة من صقلية في أواخر دولة العرب بها ولما حكم صقلية النرمانديون ، وتعرض لاضطهادهم ، تركها سنة ٤٧١هـ وقصد إشبيلية فاتصل بالمعتمد بن عباد ، ولما نفى ابنُ تاشفين المعتمدَ بن عباد ، تبعه الشاعر إلى منفاه ، وبعد موت العبادي انتقل الشاعر إلى جزيرة ميورقة ، وتوفي بها سنة ٥٢٧هـ(١)

آثاره : ترك ابن حمديس ديوان شعر طبع عام ١٨٨٣م ، وكانت الأحداث السياسية والاجتماعية ونكبة بلاده ، وما حل بها بعد سقوطها سبباً لأن يغلب عليه التشاؤم ، فندب زمانه وكثر بكاؤه :

ذكرت صقليةَ والأسى * يهيج للنفس تذكارها
فإن كنت أخرجت من جنة * فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء * حسبت دموعي أنهارها

كما شكا الإخوان ، وأحب العزلة :

---

(1) راجع الأدب الأندلسي حنا الفاخوري ٨٣٩ .
راجع المنتخب من أدب العرب ص/ ١٦٥ والأدب الأندلسي حنا الفاخوري ص/ ٨٤١ .

ولما رأيت الناس يُرهب شرُهم * تجنبتـــُهم واخترت وحدةَ راهبِ
كما كانت الحياة العقلية إضافة لما سبق سببا في تهذيب خياله ، فامتاز شـــعره بـــبعد الغـــور ، وكثرة التأمل ، ودقة التصوير في أوصافه ، وإخراجها في ثوب قشيب من نسج الخيال ، فإذا وصف النهر ، أراك الصـّـبا تصقل متنه وتظهر مكنوناته ، وأسمعك في خريره شكايته من جراح تثخنه بها أطراف الحصا التي في قعره :

ومطّرد الأجزاء يصقل متنـــــه صباً أعلنت للعين ما في ضميرهِ
جريح بأطراف الحصا كلما جرى عليها شكا أوجاعـــــه بخريرهِ

وقد أجاد في وصف الطبيعة الصناعية ، فنجده في قصر بناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية بأفريقية ، وقد افتن صانعوه ، يقول فيه :[١]

قصر لوأنك قد كحلت بنـــوره أعمى لعاد إلى المقام بصيرا
واشتق من معنى الحياة نسيمــه فيكاد يحدث للعـظام نشورا
أعيت مصانعه على الفرس الألى رفعوا البناء وأحكمو التدبيرا

وكـــان توسعه في الوصف بداية تجديد في الشعر الأندلسي ، وشعره أنيـــق اللفظ ، وهو على ما به من أنواع المحسنات اللفظية بيِّن المعنى سلس رقيق لا تعدوه الاستعارات والتشابيه الجميلة عن غير تعقيد ولا مغالاة .

۞۞۞۞۞۞

ابن خفاجة : (٤٥٠ـــ ٥٣٣هـــ / ١٠٥٨ـــ ١١٣٨م)
هـــو أبـــو اسحق ابراهيم بن خفاجة ، ولد بجزيرة " شُقر" من أعمال بلنســـية ، عاش في أيام ملوك الطوائف إبان دولة المرابطين ، ورغم تنافسهم على الشعراء لم يتعرض لاستماحتهم ، وتعاطى الشعر والنثر

---

(1) ديوان ابن حمديس تحقيق إحسان عباس ٥٤٥ ، ونفح الطيب ج/ ٣٧ .

فبرع فيهما حتى أعجب به مواطنوه وعدوه واحد عصره ، عكف على اللهو ، ثم أقلع في كهولته عن صبوته وعكف على وصف الطبيعة ، توفي ببلدته سنة ٥٣٣هـ .

آثاره : لابن خفاجة ديوان مطبوع ، وفيه من أنواع الشعر المدح والعتاب والرثاء والشكوى والوصف وما إلى ذلك ، ولكن الوصف هو الغالب فقد كانت بلدته (شقر) من أجمل بقاع الأندلس .

وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان في النفس حبَّ الجمال وسعة الخيال ، وقد نشأ ابن خفاجة مولعاً بجمال الطبيعة ، لا ينفك يملأ ناظريه ومخيلته من محاسنها ، ويتغنى بمشاهدها فإذا مدح ابتدأ بالوصف ، وانتزع من الطبيعة صورة ، وإذا رثى مزج البكاء بالوصف مزجاً بليغاً ، فتصبح دموع الباكين جداول ماء ، واهتزاز أجسامهم كاهتزاز الغصن الندي وأنينهم كصوت قُبرة نائحة ، ففي رثاء أحد الوزراء بالأندلس ، يقول: [١]

في كل ناد منكَ روضُ ثناءِ وبكل خدٍّ فيكَ جدولُ ماءِ

ولكل شخصٍ هِزةُ الغصنِ النَّدي

غِبَّ البكاءِ ورنةُ الـمُكـَّاءِ[٢]

فنحن نرى سيطرة جمال الطبيعة على ابن خفاجة حتى في رثائه ، وهو يتحدث عن أثر الفجيعة فيذكر أن كل منتدى به حسرة تطلق ألسنة الناس بالثناء ، وأن الدموع على كل خد تنساب غزيرة ، كما تنساب مياه الجدول ، وأن أجسام الباكين عليه ترتجف ، كما تهتز الأغصان النَّدية ، ويتعالى نشيجهم كرنات حزينة من المكاكيِّ .

---

(1) راجع مقدمة ديوان ابن خفاجة ص/٦ ط جمعية المعارف سنة ١٨٦٩م . ووفيات الأعيان ج/١ ٣٩ .

(2) ديوان ابن خفاجة ، ص/ ١٦ ـ ١٧ . غب البكاء : عقب . والمكاء : القبرة .وقد عرضنا لهذه القصيدة في فن الوصف (انظر الكتاب ص/ ٤٠) .

أرأيــت كيف انطلقت مخيلة الشاعر لترسم وتصور: فثناء الناس على الوزيــر روض زاهــر ، والدموع على الخدود جداول تسيل ، وهزة الــباكي هِـزة غصــن ندي ، ونشيجه نواح مكاء ! إلا أننا نأخذ عليه تصــوير رجفــة الباكي بهزة الغصن الندي ؛ لأنها صورة لا توحي بالجو النفسي للرثاء .

وابن خفاجة من شعراء الطبيعة الذين أكثروا فيها ، ولعل ميزنه هي فــي الكــثرة لا فــي الجدة . وملامح الطبيعة في شعره لا تخلوا من مــنازع شــرقية ، فهــو يردد اسم " نجد " ويناجي خيامها وحيوانها ونسيمها ونباتها :(١)

وهل عند نجدٍ أنَّ عندي أدمعا	تصوب وشجوا بينهن يطول ؟
ويارِيمَ نجد والعــوادي كثيرة	بحكم الليالى والوفــاء قليــل
ألا رجَّــعت عنك الشمال تحية	تمشــَّت بها عنــي إليك قبول
وهل بين هاتيك التلاع معرس	وفي ملتقى تلك الظــلال مقيل؟

إنَّ مفــاتن الأندلس الطبيعية لتمثل صفحة مشرقة في شعر ابن خفاجة فهــو مولع بموطنه (شقر) مسقط رأسه ، ومرتع صباه ، يحن إليها إن بعــُد عنها، ويتصدع قلبه لفراق محاسنها ... اسمع إليه ، وهو ينشد على أثر سماعه هديل الحمام ، فيقول : (٢)

سجعتُ وقد غنَّى الحمام فرجــَّعا	وما كنت لولا أن يغني لأسْجَعا
وأندبُ عهــداً (بالمشقر) سالفاً	وظلَّ غمــَامٍ للصبّا قد تقشّــعا
ولم أدر ما نبكي : أرسم شبيبةٍ	عفا أم مصيفا من سليمى ومربعا
وأوجــعُ توديع الأحبــة فرقة	شــباب على رغــم الأحبة ودعا
زمان تقضَّى غير عهد محاسن	تســُوم حصاة القلب أن تتصدَّعا

---

(١) ديوان ابن خفاجة ط بيروت ١٩٨٢م ص / ٢٩٤ .
(٢) المرجع السابق ص/ ١٦١.

ولأنَّ ابن خفاجة مولع بالطبيعة " استطاع أن يتسمع صوت الجبل عن رهافة أذن ولطافة حسٍّ ، فحدثه الطود باكياً متأثرا ذاكراً تاريخه الحافل منذ كان ملجأً لقاتل ، أو موطناً لناسك عابد وقد بات فيه المدلجون بالليل ، واستظلَّ بجنابه المقيلون بالنهار.. فما خفق أيكه الآن غير أضلع راجفة ، وما نوْح حمامه غير صرخة نادبٍ يبكي فراق أحبته ، فإلى متى يبقى ليستقل حبيباً .. وإلى متى يبقى ليرعى الكواكب ، فمن طالع أخرى الليالي وغارب ! لقد نقل الشاعر حديث الجبل فسحر الناس وأدهشهم حين قال :

وأرعَن طماحِ الذؤابة باذخ ... يطاول أعنان السماء بقارب[١]

يسدُّ مَهب الريح عن كل وجهه ... ويزحمُ ليلاً شهبه بالمناكب

وقور على ظهر الفلاة كأنه ... طوال الليالي مفكر في العواقب

أصختُ إليه وهو أخرس صامت ... فحدثني ليل السرى بالعجائب

وقال : ألا كم كنت ملجأ قاتل ... وموطن أوّاهٍ تبتّل تائب

وكم مرَّ بي : مُدلج ومؤوب ... وقال بظلّي من مَطيٍّ وراكب

فما كان إلا أن طوتهم يدُ الرَّدى ... وطاحت بهم ريح النوى والنوائب

فما خفقُ أيكي غير رجفة أضلعٍ ... ولا نوحُ ورقي غير صرخةِ نادبِ

وما غَيَّضَ السُّلوان دمعي وإنما ... نزفتُ دموعي في فراقِ الصَّواحبِ

فمن طالع أخرى الليالي وغارب

يقول الدكتور رجب البيومي : " تعد هذه القصيدة ذروة اكتمال شعر الطبيعة في الأندلس ! وقد بلغ التشخيص فيها مبلغاً ، لا نجده إلا عند كبار الشعراء في الشرق والغرب ! ولو ذهب جميع ما قال ابن خفاجة وبقيت وحدها لكانت معجزة إبداعه ودليل تفوقه ! " [٢]

---

[1] الأرعن : الجبل الشامخ ، الغارب : الكاهل .

[2] راجع الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ص/٧٧ ــ٨٧ .

وقـد اكـثر ابـن خفاجـة من صبغ شعره بألوان البيان والبديع من اسـتعارات وتشـابيه وجناس وطباق ، وقاده هذا الميل إلى التكلف ، فاستغلقت معانيه أحيانا علي القراء . ولابن خفاجة قطع نثرية ، تعمد فيهـا أسلوب ابن العميد والهمذاني من حيث السجع والتعمل ، والتزام المحسنات اللفظية .(١)

۞۞۞۞۞۞

ابن سهل الإسرائيلي : (٦٠٥ ــ ٦٤٩هـ/ ١٢٠٨ ــ ١٢٥١م)

هـو إبـراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي . (٢) كان يلقب قبل إسـلامه بالإسـرائيلي ، كـان يهوديـا وأسلم ،عاش أيام بني هود والمـرابطين في بيئة علم وأدب وترف . وتتلمذ لأشهر علماء النحو والـلغة والأدب في أيامه . ثم اتصل بصاحب سبتة " ابن خلاص " ، وكـتب له . وقيل : إنه أسلم في آخر حياته ، وتوفي غريقاً مع ابن خلاص .

آثاره : لابن سهل منظومات كثيرة جمعها وبوّبها الشيخ حسن العطار فنشـرت فـي مصر سنة ١٢٧٩ هـ . وفي بيروت سنة ١٨٨٥ م . يشـتمل شعره علي الغزل والرثاء والمدح والوصف والزهد ، ولكن أكـثره في الغزل. وقد عبَّر شاعرنا فيه عن كل ما جال في خاطرة ، بـل حـام علي ما جادت به قرائح الشعراء قبلة في هذا الموضوع ، حـتى أصـبح ديوانـه صورة لوله العشاق ، ومجموعة لما يدبُّ في نفوسـهم من المعاني ، وفي قلوبهم من الإحساسات . ولكن ابن سهل

---

(1) الأدب الأندلسي ، حنا الفاخوري ص/ ٨٤٣ .

(2) راجـع الأدب الأندلسـي ، المرجع السابق ص/ ٨٤٣ ــ ٨٤٤ والمنتخب من أدب العرب ص/١٤٩وما بعدها .

علق بالأوصاف الظاهرة أكثر مما حفل لاختلاجات النفوس . أما أسلوبه فرقيق سهل ، فلما يذهب فيه مذهب التكلف في الاستعارات والمحسنات ؛ وصوره جميلة يرسم لنا فيها مشاهد فتانة بلباقة وأناقة فيقول مثلاً في وصف الأصيل:

أنظر إلي لون الأصيل كأنه لا شك لونُ مودع لفراقِ
والشمس تنظر نحوه مُصفرَّةً قد خمَّشت خداً من الإشفاقِ
لاقت بحمرتها الخليج فألَّف خجلَ الصِبا ومدامعَ العُشاق
سقطتْ أوانَ غروبها محمرَّة كالخمرِ خَرَّت من أناملِ ساقِ

ولعل التجديد هنا في صوره الفنية ، حين جمع ببين عدة أغراض في لوحة واحده ، وتوسع فيها ، فابن سهل يتمتع بروح الغزل المحب ثم تنعكس روحه على وصف مجالس الخمر ممتزجة بسحر الطبيعة الأندلسية ، ولربما وجدنا هذه الصورة المكتملة في معظم قصائده ، ففي قوله مثلاً :

سل في الظلام أخاك البدر عن سهري
تدري النجوم كما يدري الورى خبري
أبيت أهتف بالشكوى وأشرب من
دمعي وأنشق ريَّا ذكرك العطر
حتى أُخَيل أنّي شاربٌ ثمِلٌ بين الرياض وبين الكأس والوَتَر
من لي به ؟ اختلفتْ فيه الملاحةُ إذ أومتْ إلى غيرهِ إيماءَ مُحتَضَر

نرى خيال عاشق ، أجاد وصف ما حوله ، كما نرى روح المحب الغزل من وراء تلك الانسيابية الشعرية .

ويدفعه التغني بالحب لأن يكون في مقدمة الوشاحين المجددين في الشعر العربي الأندلسي ، وقد أشرنا في الحديث عن الموشحات إلى بعض أشعاره التي لقيت رواجاً ، دفع بعض الشعراء لمعارضته .

لســـان الديـــن ابن الخطيب : (٧١٣ــ ٧٧٦هــ/ ١٣١٣ــ١٣٧٤م)
هــو محمــد بــن عــبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي الأندلسي ، المعروف بابن الخطيب ، ولد في مدينة غرناطة سنة ٧١٣هــ ، وكان أبــوه ذا شأن عظيم عند ملوك بني الأحمر . شبَّ ابن الخطيب ميالاً إلى الدرس ، يأخذ عن العلماء والأدباء حتى برع بالأدب وعلوم اللغة والفقه والفلسفة والطب ، فكان من أشهر رجالات الأندلس لذلك العهد اســتوزره " أبــو الحجــاج يوسف "سلطان غرناطة ، من ملوك بني الأحمــر ثــم ابــنه (الســلطان محمد) من بعده ، وفي ذلك الحين اضــطربت الأحــوال وكــثر الخارجون على السلطان فراح الحساد يدبــرون لابــن الخطيب الدسائس فنسبوا إليه الزندقة لسلوكه مذهب الفلاســفة ، فخرج إلى فاس بالمغرب وهناك اعتقل وسجن ثم قتل في سجنه سنة ٧٧٦هــ بعد أن أفتى الفقهاء بقتله ، وأحرقت جثته .[١]

آثاره : كان ابن الخطيب واسع الاطلاع ، غذَّى عقله بثقافة عصره ، وبــرع فــي كــثير من الفنون ، فترك مصنفات مشهورة ، منها في الــتاريخ : " الإحاطة في تاريخ غرناطة " في ثلاثة مجلدات و" الحلل المرقومة " ، وهو تاريخ الخلفاء في المشرق والأندلس وأفريقيا ، و " الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام " و " اللمحة البدرية فــي الدولة النصرية " و " نفاضة الجراب " في وصف مدن الأندلس وعــلمائها . وألف أيضاً في التصوف ، والموسيقى ، والفقه والطب ، ولــه رسائل كثيرة جمع قسماً منها في كتابه : " ريحانة الكتاب ونجعة المنــتاب " وله أيضاً ديوان شعر ، ليس من الطبقة العالية ، باستثناء الموشــحات . وكــل مــا وصلنا من موشحاته أربع موشحات ، نظم أشهرها وأبدعها من بحر الرمل ، ومطلعها :

---
(1) الأدب الأندلسي للفاخوري ص/٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ونفح الطيب للمقري ج٢ص١١ ــ ١٤

جادك الغيث إذ الغيث همى * يازمان الوصل بالأندلس

وهـــي التي شرّقت وغربت . أما موشحاته الثلاثة الباقية ، فقد جاءت مـــن بحر الخفيف[1] وابن الخطيب بهذه الموشحات كان فارس الحلبة في عصره ، وقد اختار أخفَّ البحور وأنسبها للغرض الأساسي الذي أنشئت من أجله الموشحات ، وهو الغناء .

أمـــا أسلوبه : فهو أصدق مثال على ما صار إليه النثر الأندلسي في أعصـــره الأخيـــرة ، وهو قريب من أسلوب القاضي الفاضل ، وأهم مميـــزاته الشـــغف بالمجـــاز والـــبديع حتى الإسراف والاستكثار من الإشارات التاريخية والعلمية ، والإسهاب والإطناب ، واعتماد السجع غالـــباً ممـــا يقود إلى التعقيد والتصعيب فيمل القارئ ذلك الزخرف ، وتلك الصور المتتابعة والصنعة المتكلفة .

فمما كتبه في رسالة إلي علي بن بدر الدين الطوسي ، قال :

" الحمـــد لله الـــذي جمـــع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ســـبحانه لامـــبدل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصـــيرا، فـــلا يستطيع جادث أن يصيبه .. وأما حالي فكما علمتم : ملازم " كن" ، ومهبط تجربة وسن ، أزجي الأيام ، وأروم بعد التفرقة الالتـــئام [2] ، خالي اليد ، ملئ القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية ، التي أختارها لكم ولنفسي ، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي وأمسي "

❁❁❁❁❁❁

---

[1] راجع ديوان الموشحات الأندلسية د. سيد غازي ج٢ ص : ٤٨٤ـــ ٤٩٨ .

[2] مـــلازم كـــن : أي الـــبيت ، وســـمي بهذا لأنه يكنُّ الإنسان أي يستره . يزجي : يدفعها ويسوقها سوقاً رقيقاً ، وهذا المعنى من المجاز .

الفصل الثالث

طوق الحمامة

لابن حزم الأندلسي

<u>ابن حزم الأندلسي :</u> (٣٨٣ـ ٤٥٦هـ)

هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي يكنَّى : أبو محمد ويلقَّب بـابن حزم الظاهري ، ولد بقرية " منت لبشم " بقرطبة في آخر يوم من شـهر رمضان سنة ٣٨٣هـ [١] تولى الوزارة وسنه ١٦ ست عشـرة سنه ، واستمر حتى بلغ ستاً وعشرين عاماً ثم تركها ، عندما اتجـه فـي طريق العلم والبحث ، وقد بلغت تآليفه في الفقه والحديث والأصـول والملل والنحل والتاريخ والنسب والأدب .. أربعمائة مجلد فـي ثمـانين ألف ورقة ، وما عُرف مثل هذا لأحد من معاصريه أو ممن قبله من علماء الإسلام إلا لابن جرير الطبري ، وعلى رغم هذا الفضل ، فقد عُودي واضطُهد ، وما أحسن قول ابن حزم عن نفسه [٢]

فمهما طار في الآفاق ذكري * فما سـَطع الدُّخان بغير نار

أما كتاب: طوق الحمامة لابن حزم : فهو في فلسفة الحب والجمال ، وقـد تـناول " العاطفـة الإنسـانية " بالـبحث المعتمد على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج ، **والجميل فيه** : أن مؤلفـه فقيه ، ولكن طبيعة ابن حزم ، الصريحة الجريئة ، وظروف نشـأته المـرفَّهة ، التي أتاحت له مخالطة الحريم في القصر وإدراك كثير من التجارب العاطفية ، وظروف عصره من جانب آخر ، جعلته يسطِّر هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثين باباً ويفخر به الأدب الأندلسي.

---

[1] ينـتمي نسبه إلى يزيد الفارسي القرطبي ، مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عـبد شمس القرشي ، كان أبوه وزيراً للمنصور محمد بن أبي عامر ثم لابنه المظفر من بعده كمـا كان وزيراً لعبد الرحمن المستظهر بالله ثم للناصر لدين الله بن هشام بن عبد الجبار ثم لهشام المعتمد بالله بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر لدين الله .

[2] راجـع مقدمـة طـوق الحمامة في الألفة والألاف لابن حزم تحقيق الدكاترة / نصر فريد واصـل عبد العزيز عزام ، محمد فهمي السرجاني ، وقد نال الكتاب **شهرة بين أدباء الشرق والغـرب** وتـرجمه إلى اليابانيـة دكتور" توشيوكورودا " **رئيس قسم اللغة اليابانية بجامعة** القاهرة .

علامات الحب : وللحب أعراض وعلامات لايمكن إخفاءها، وقد سبق ابن داود بالاهتمام بها من خلال (الشواهد الشعرية) بينما اهتم بها ابن حزم من خلال (الملاحظة والاستقصاء) وأولها : إدمان نظر المحب إلى جهة المحبوب يتتبعه ويميل إليه حيث مال كالحرباء مع الشمس ومنها : إقبال المحب بحديثه على المحبوب والالتفات إليه والإنصات لحديثه .. وتصديقه وإن كذب وموافقته وإن ظلم .. ومنها: الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه والتعمد للقعود بقربة والتباطؤ فى الشىء عند القيام عنه .

ومنها : زهول يقع وروعة تبدو على المحب عند رؤية من يحب فجأة وطلوعه بغتة .

ومنها : اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة .

ومنها : أن يجود المحب بما يملك ليبدى محاسنه، فكم من بخيل جاد وقطوب تطلق وجبان تشجيع، وجاهل تأدب وفقير تجمل ومصون تبذل .. ومن علامات الحب لكل ذى بصر :

الانبساط الزائد، والتضايق فى المكان الواسع والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما وكثرة الغمزة الخفى ، والميل بالاتكاء .. وشرب فضلة مابقى المحبوب فى الإناء، وتحرى المكان الذى يراه فيه، والارتياح لسماع اسم المحبوب والتلذذ بأخباره .. وابن حزم يستشهد بالأشعار والأخبار التى عايشها وسمعها عن قرب[1] .

مراتب الحب : وقد فرّق ابن حزم بين مراتب الحب وذكر أن أعلاه منزلة الحب الذى يكون فى الله ولله لالدنيا ولالعرض من أعراضها ويلى ذلك منزلة محبة الصداقة

---

(١) راجع الطوق ص ١٤ ومابعده .

والألفة والتى تقوم على روابط وثيقة من الدين والوفاء والخلق القويم وتلك هى أدوم الصداقات وأبقاها على الزمن[١] ، ثم تأتى محبة العشق التى لا سبب لها إلا اتصال النفوس، وهى أيضاً مراحل تسلم كل واحدة منها إلى مايليها وأولها : الاستحسان ثم الإعجاب : أى رغبة المستحسن فيمن استحسنه، وهو الذى سماه ابن داود (بالمودة) والمرتبة الثالثة :

الألفة : أى الشعور بالوحشة إذا غاب المحبوب عن المحب ثم تصير الألفة (كلفا) حين يستحوذ المحبوب على التفكير ويتمكن من الخواطر أما الحالة الخامسة والأخيرة فهى (الشغف) وذلك حين تتحكم الهواجس ويمتنع المحب عن النوم والأكل والشرب إلا اليسير وليس وراء الشغف - عند ابن حزم - منزلة قال تعالى : "قد شغفها حبا"[٢] بل قد يؤدى الشغف إلى المرض والتوسوس أو الموت . ولعل من المفيد أن نرجع البصر إلى (مراتب الحب) عند ابن داود : حيث جعلها ثمانى، وهو قد أفرط فيها فأدخل أحوالا تطرأ على الحب أو صفات تغلب عليه فى بعض الأحوال . وأحسب أن ابن حزم كان أكثر توفيقاً فى بيانها[٣].

سر الإعجاب بالجمال : شغل به كثير من الباحثين منذ فسّره ابن حزم بأنه الشهوة غالباً فقال : "فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة فهى إذا رأت بعضا تثبتت فيه فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة وذلك هو الشهوة " (الطوق / ١٠) .

---

(١) راجع مقدمة الطوق د . عبد العزيز عزام .

(٢) سورة يوسف آية / ٣٠ .

(٣) راجع الحب العذرى ص ١٨٥ .

مع أن من المحبين من أحب الجميل من غير أن ينال منه الإسعاد أو المواصلة.

والإعجاب بالجمال : أكسير هذه الحياة به يتعاطف الإنسان مع الإنسان ومع غيره من مظاهر الكون .. حتى فى مقام الصلاة يتقدم المصلين إماماً أجملهم وجها إن لم يوجد الأقرأ، كما روت عائشة أم المؤمنين : "يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله عز وجل، فإن كانوا فى القراءة سواء فأصبحهم[1] وجهاً" وعن ابن عباس عن رسول الله (ص) "النظر إلى الوجه الجميل يجلو البصر، والنظر إلى الوجه القبيح يورث الفلج"[2] .

ورأى ابن حزم أن الحب يبدأ شهوة واستحسانا ثم تنفصل الشهوة وتزول أو تصبح شيئاً ثانويا، وهو رأى بعض علماء النفس المعاصرين ولكن من الحب العذرى مايبدأ من قبل أن تظهر الشهوة، يبدأ ألفة بين حبيبين يستلطف أحدهما الآخر ويرتاح لصحبته ثم تستيقظ فى النفس غريزة الجنس فيحسُ كل منهما إحساساً مبهماً يربطه بأليفه ويجذبه إليه أكثر من ذى قبل وهكذا حتى تكتمل فيهما عاطفة الحب[3] .

وعن **سر الجمال** فى النفس يقول الشيخ أمين الخولى : "الجمال روح هذا الكون وهو مبعث الغبطة الروحية، والنشوة النفسية مما نجده ولانراه، ونحسُّه ولانحده"[4] .

وابن حزم الفقيه الفطن يعود ليفرق بين الحب والشهوة، فالحب إنما يكون : "إذا فصلت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصل اتصال نفسانى تشترك فيه الطبائع" (ص ٣١) .

(١ ، ٢) أى أجملهم (أخبار النساء / ٢١ ، ٢٢ .

(٣) د / الجوارى ص / ١٨١ .

(٤) مشكلات عواطف الشباب ص / ٤٢٥ .

وهناك نوع من الحب : يقع دون معاينة ، بدايته المراسلة والمكاتبة، وابن حزم يعقد له : "باب من أحب بالوصف" ويفسّر هذا النوع من الحب : بأن النفس تتخيل المحاسن، فتألفها وتتعلق بها وهو حب على غير أساس قوى، فربما تأتى المعاينة لتؤكده أو تنفيه تماماً .. !

"وإذا كان كثير من المصلحين والكتاب الاجتماعيين قد انكبوا على معالجة مشكلات الحياة الزوجية والعائلية، ففى يقينى أن السرّ فى تلك المشكلات هو انفصام للرابطة الزوجية، واندعام توافر العلاقة السحرية التى تجمع بين الجنسين، وافتقاد الحسّ الباطنى الذى يقوم على الحب ويهدى الشخص فى لمحة من اللوامح الخاطفة إلى الأليف الذى يكمل شخصه، ويسعد نفسه. ولذلك لانعجب إذا رأينا ابن حزم يحدثنا عن (الحب بالوصف) فيقول : "وللحكايات ونعت المحاسن ، ووصف الأخبار تأثير فى النفس ظاهر .. وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى من لم ير لابد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهّمها .. ثم يقول : "وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال لضعفهن، وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن" (١)

وهذا الاستنباط الجيد فى الحب أو فى العلاقات الاجتماعية مما يحمد لابن حزم! ومما سبق يمكن أن نقرر **حقيقة هى** : "أن الباعث على الحب هو الجمال، وأن الجمال عادة يكمن فى الطبيعة والمرأة، الطبيعة بما فيها من جمال وقيم، والمرأة بما فيها من إشعاعات ومعان" (٢) .

فأى نفس لاتعشق الجمال ! وأى قلب لايصبو إليه !

---

(١) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص ١٥٥ والطوق ص ٢٥ .

(٢) الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص / ٩٩ .

وقد وضع ابن حزم نظرية معاصرة جهدة تفرق بين الحب والشهوة فالحب الذى يقع من أول نظرة لايكون حباً متمكناً من النفس راسخاً فى القلب إذ هو شهوة عابرة! وابن حزم بهذا : يكشف عن عقلية سيكولوچية ممتازة لأنه يربط الحب بالزمان ويقيم العاطفة على تعدد التجارب وارتباطها بموضوع واحد فيبين لنا كيف أن للاستقرار النفسى دوراً هاماً فى تأصيل عاطفة الحب ودوامها وكيف أن "مادخل عسيراً لم يخرج يسيرا" [(١)]

وهو يؤكد ذلك بحديثه عن نفسه : "وإنى لأطيل العجب من كل من يدعى أنه يحب من نظرة واحدة ولاأكاد أصدقه ولاأجعل حبه إلا ضرباً من الشهوة .. ومالصق بأحشائى حب قط إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل وكذلك أنا فى السلو والشوق فما نسيت وداً لى قط وأن حنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصنى بالطعام ويشرقنى بالماء " ص/ ٣٠ أى أنه يجعل من دوام المشاهدة قاعدة لأصالة الحب وثباته .

وابن حزم فى هذا أيضاً يتفق مع ابن داود الذى أشار إلى هذا [(٢)] حين وضع للحب مراحل إذا قطعها المحب واحدة بعد واحدة كان الحب على التمام فى المصافاة وإلا كان انقضاؤه قريباً كما كان ارتقاؤه فيها سريعاً . إلا أن ابن حزم كان أوضح وأوقع .

وفى باب "من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها" يطرح قضية نفسية غاية فى التحليل والتدقيق فلو أن إنساناً اضطر لتكرار تجربة الحب فى القول فى حبه الثانى هل يسلك نمطاً جديداً أم يقع فيما وقع فيه فى حبه الأول ؟

---

(١) مشكلة الحب ص ٣٢٨ .

(٢) الزهرة ص ٦٢ .

يقرر ابن حزم أن لكل إنسان أسلوبه فى سلوكه العاطفى ونمطه الشخصى الذى لايتغير ولايكاد يقوى على تغييره وإن تكررت تجربته العاطفية! "وهو يكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم "التثبيت" وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شىء ارتباطاً وثيقاً، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى"[1]

ويؤكد ابن حزم هذا بما لاحظه على بعض معاصريه فى قوله : "وأعرف من كان أول علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر فما أحب طويلة بعد هذا وأعرف أيضاً من هوى جارية فى فمها فوه لطيف، فلقد كان يتقذذ كل فم صغير ويذمه ويكرهه.." كما يخبر عن نفسه بقوله : "وعنى أخبرك أنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ولو كانت على صورة الحسن نفسه وأنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت لاتواتينى نفسى على سواه، ولاتحب غيره البته" (الطوق / ٢٨) .

وفى باب "الإشارة بالعين" يحدثنا عن نوع من أساليب المحبين فى الإعراب عن حبهم. من ذلك لغة العيون وإشارات الألحاظ : "وأعلم أن العين تنوب عن الرسل ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً وهى رائد النفس الصادق ودليلها الهادى ومرآتها المجلو التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات" (ص / ٣٩) .

هكذا يوازن بين الواقع والتحليل النفسى مستعيناً بنزعته الفقهية القائمة على تقصى المسائل وتفتيت الكل إلى أجزاء .

---

(١) مشكلة الحب ص / ٢٣١ .

أحوال الحب : وللحب أحوال منها : أن يجتهد المحب فى (كتمان حبه) وإخفاء سره، وتلك من (آداب الحب) عند ابن داود - كما سبق - وقد دعا المحب للكتمان وأشار إلى مايتصبّر به من ظواهر طبيعية : كالأطلال والآثار وهبوب الريح ونوح الحمام .. وقد يلتمس العزاء فى الخيال ومسامرة الذكرى . أما نحول الجسم فمما لاحيلة فى كتمانه . وكل محب متشوق بما ذكر من ظواهر متصبر بها فحبه ناقص، وتلك نزعة مثالية فى حب ابن داود . (الزهرة ص ٣٠٣ ومابعدها) .

أما ابن حزم فقد ذكر أن المحب لايقوى طويلاً على كتمان سرّه فهو بحركاته ونظراته سرعان مايعرف حبه ويكتشف أمره فإذا الناس يلحظون اضطرابه عند رؤية محبوبه ويدركون من خلال إشاراته وحركاته ماانطوت عليه مشاعره.. الخ. ثم يعرض لدواعى كتمان الحب، فيرد - بداية - على من يكتم حبه لئلا يوصف بأنه من أهل البطالة فى زعمه فيقول : "وماهذا وجه التصحيح فيحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة" (ص / ٤٤) **ويرى أن أهم أسباب الكتمان** : إبقاء المحب على محبوبه وصونه وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . (ص / ٤٥) **ومن الأسباب أيضاً** : توقى المحب نفسه لجلالة قدر المحبوب، فبعض شعراء قرطبة تغزل بصبح "أم المؤيد" فغنت بشعره جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلهما (ص / ٤٦) **ومن الأسباب** : الحياء الغالب على المحب (ص / ٤٧) .

والحقيقة أن حديث ابن داود عن **كتمان الحب** كان أرحب أفقاً من ابن حزم وأعمق منه نظراً حيث لم يقتصر على كتمان المحب حبه عن الآخرين وإنما عرض أيضاً لكتمان المحب حبه عن المحبوب نفسه .. ويخيل إلىّ أن ذلك كان رهناً بطبيعة الحب كما أدركه كل منهما وكما اختبره وتقلب فى أحواله، فقد كان محبوب ابن حزم طوع يديه إلى حد بعيد ولم يكن يتكلف فى رضاه كثيراً .. وهكذا يكون حب المترفين

غالباً.[1] وقد أشار ابن حزم إلى ذلك فى قوله : "ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالايكاد يعلمه غيرى لأنى ربيب فى حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ولاجالست الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تفيل وجهى. وهن علمننى القرآن وروّيننى كثيراً من الأشعار.." ص / ٥٩ .

إلا أنه لم يرفع ذيله على حرام كما أقسم على ذلك أغلظ الإيمان وهذه النشأة تختلف عن نشأة ابن داود فقد كان حيياً رقيقاً خجولاً تزعجه الهمسة وتضايقه الإشارة وتربى فى أسرة فقيرة، مات أبوه إمام المذهب الظاهرى ببغداد فتبوأ كرسيه فى رئاسة المذهب وهو صغير وابتلى بالحب العارم فسجل فى الزهرة تجربة ذاتية لعاشق مسكين .!

آفات الحب : وللحب آفات تكدر صفوة أولها : **العاذل** : وهو أقسام فأفضلهم "صديق قد اسقطت مؤونة التحفظ بينك وبينه" وكان رفيقاً يدرك متى يستثقل الكلام .

- "ثم عاذل زاجر لايفيق أبداً من الملامة وذلك خطب شديد وعبء ثقيل" . على أن من المحبين من يملأ الحب قلبه فلا يبالى بالعاذل وقد يلذ له عذله ليريه عصيانه إياه ومخالفته له، وقد شاهد ذلك ابن حزم فيمن عرف من المحبين .(ص / ٥٦)

ويتبع ابن حزم (العاذل) بباب (المساعد من الإخوان) فيسجل حرص النساء على الكتمان وشغفهن بإصلاح ذات البين من المحبين وهذا - كما ذكر - من أسباب تمكن الحب فيهن .

ومن آفات الحب : (الرقيب) "وانه لحمى باطنه وبرسام ملح .. والرقباء أقسام : فأولهم حسن النية ليس دأبه ولاغرضه المراقبة والتكدير بل أوقعه عليهما سوء

(١) الحب العذرى ص / ١٩١ ، ١٩٢ .

الطالع.. ثم "رقيب فضولى" : يروى فضوله ويشفى غليله، يرمقهما من طرف خفى لاتفوته حركة (ص / ٦٠) .

وأشنع مايكون الرقيب : إذا كان مما امتحن بالعشق قديماً ودهى به وطالت مدته فيه ثم عرى عنه بعد أحكام لمعانيه .. فتبارك الله أى رقابة تأتى منه وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .(ص / ٦٢)

ومن آفات الحب (الواشى) وهو أنواع : أحدهما يسعى بين المتحابين ليقطع أسباب المودة ، وآخر أشد خطراً يسعى لقطع مابين المتحابين ليستأثر هو بالمحبوب يتوسل لذلك بكل الوسائل (ص / ٦٣) وثالث الوشاة : من يسعى بين المحبين ليكشف سرّهما، وهذا لايلتفت إليه - رغم خطورته - إذا تأكدت الثقة بينهما . ويبدو أن ابن حزم لقى فى حبه أوفى حياته من الوشاة بلاءً مبيا ، نرى شيئاً من ذلك فى قوله : (ص / ٦٤) .

عجبت لواشٍ ظل يكشف أمرنا	ومابســوى أخبارنا يتنفّــسُ
وماذا عليه من عنائى ولوعتى	أنا آكل الرمان والولد تضـرس

ففى البيت الثان اقتباس من التوراه : "الآباء أكلوا الحصرم وأسنان الأولاد ضرست" وقد التوى ابن حزم بالمعنى إذ جعله سخرية من الواشى الذى يضرس بما يشاهد من محبة العاشقين فى حين يفوز المحب بالرّمان نفسه، وهذا الاقتباس الإسرائيلىّ الخاطف كان فاتحة لعدد هائل من القصص الوعظية الإسرائيلية فى كتب الدراسات عن عاطفة الحب وصراع الشهوة والعفة، كما نرى مثلاً فى مصارع العشاق عن قصة يوسف - عليه السلام - وغيرها .[1]

(١) راجع الحب فى التراث العربى ص٢٢٥ ومصارع العشاق جـ١ / ١٦٥ ومابعدها .

وللحب آفات أخرى كثيرة كالهجر والبين والعتاب والسلو .. إذ هو ظاهرة بشرية تخضع لسائر الظواهر البشرية الأخرى، لهذا يختم ابن حزم حديثه عن (آفات الحب) بالموت، اعتقاداً منه بأن "كل ماله أول فلابد له من آخر".

أما الغيرة : فهى من غرائز المرأة المطبوعة عليها، ومرد ذلك إلى سوء الظن الذى فطرته عليه .

وتمتد براعة ابن حزم الفقيه الفنان حين يرسم صورة دقيقة للمرأة حين تتحكم الغيرة فتبدل عاطفتها من الحب إلى الكراهية أو من الرغبة إلى النفور فيقول : "ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل فعهدتها أصفى من الماء وألطف من الهواء .. ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت وأنفذ من السهم وأمر من السقم وأوحش من زوال النعم .. وأبشع من السم الزعاف" (ص / ١٥٦) .

حينئذ تتمنى المرأة موت الرجل وتجد فى موته راحة وعزاء لها عن خيانته كتلك التى كانت تقول بعد وفاة زوجها : "مايقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لايضمه وامرأة مضجع أبداً، فقد أمنت هذا الذى ماكنت أتخوف غيره وأعظم آمالى اليوم اللحاق به" ويحكى لذلك أمثله من واقع عصره (ص / ١٣٨) ذلك هو قول العاشق الدائب الذى امتحن الأمرين وذاق الحالين .

ويوازن د / الطاهر مكى بين (آفات الحب) عند ابن حزم وابن داود مفضلاً ابن حزم بقوله : "فالبون شاسع بينهما ... ولايدين أديب قرطبة ولايسطر واحد مما كتب لأفكار فقيه العراق " .

ويعلل لذلك بأن ابن داود إنما استعان بشعر غيره "جرياً" على عادته والتزاماً بمنهجه أبياتاً وراء أخرى دون تعليق منه" أما ابن حزم فقد "ضرب الشواهد من حياته نفسه ومن أحداث صحبه ووشّاه بأبيات من شعره منشداً أو متذكراً" [١].

بينما يوازن د / الجوارى فى هذا الصدد فيرى النقيض تماماً ، لهذا يفضل ابن داود . معللاً بأن استشهاد ابن حزم بشعره : "أفسد كتابه وأساء إليه ، فهو يتكلف فى شعره تكلفاً يصل به أحياناً إلى السماجة فينظم معانى الأبواب فى أبيات ثقيلة على النفس لايكاد يسيغها الذوق .

ويروى قوله :

منهم فتى كان فى محبوبه وقص [٢]	كأنمــا الغيد فى عينيــه جنان
وكـان منبسطـاً فى فضل خبرتـه	بحجـة حقها فى القـول تبيــان
إن المهـا وبهـا الأمثـال سائــرة	لاينكر الحسن فيها الدهر إنسان
وقــص فليس بهـا عناق واحــدة	وهل تــزان بطول الجيد بعــران ؟

ثم يقول معلقاً :

هكذا نرى أن شعره هذا أشبه بالشعر التعليمى يحاول أن ينظم به معانى الباب الذى كان يتكلم فيه وهو "باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها" وليست هذه الغثاثة بقاصرة على هذا الطراز من شعره ولكنها تشيع فى أغلبه حتى الذى يخاطب به الحبيب :

وإنى وإن تعتبت لأهون هالك	كذائــب نقر زل من يد جهبـذ
على أن قتلى فى هواك لذاذة	فياعجبــا مــن هالك متلــذذ

(١) دراسات عن ابن حزم ص ٢٩٤ .

(٢) الوقص : العيب والنقص . والأبيات بالطوق ص ٣٥ .

ثم يدفع د / الجوارى عن نفسه مظنة الاختيار الردىء فيقول : فشعره فى الغالب سواء فى الخلو من العاطفة وفى هزال المعانى وبرودة التشبيه وركاكة الأسلوب.. وقد أفسد بإيراده الكتاب وقطع على القارىء لذة التمتع بأسلوبه الأنيق الجميل فى النثر حتى لايكاد يصدق أن هذا الشعر لصاحب هذا النثر لولا أن يفاخر بنسبته إليه ويعتز به[١] .

والذى أراه حسماً لهذا التناقض : أن ابن حزم قد عبر عن شعوره بما فيه بلاغ وأدى مايجول بخاطره منظوماً والشعر الحديث إنما يعنى بنظم المشاعر والأحاسيس كتلك التى نقلها إلينا ابن حزم بما جعلنا نحس إحساسه بقطع النظر عما استعمل من الفاظ معهودة عند الفقهاء مثلاً أو غيرهم ، ونحن لو تتبعنا العديد من فحول الشعراء لوجدنا كثيراً من السقطات إما بلفظة نابية أو قلق فى عبارة أو ضيق باقتباس أو كسر لوزن .. الخ فلا يخلو عمل من مواطن الضعف ولايعلو على النقد، وقد يحمد لابن حزم ارتجاله النظم فى كل موضع وفى كل موقف له أو لغيره، إلا أن تسرعه فى النظم كان ثغرة لبعض مآخذه وتلك نتيجة طبيعية .

وقد عرض ابن حزم **لآداب الحب** : وهو فى هذا يقصر عن ابن داود ولايلحق به، فقد اقتصر من آداب الحب على **الوفاء** : وقسمه ثلاث مراتب أولها : "أن يفى الإنسان لمن يفى له وهذا فرض لازم وحق واجب على المحب والمحبوب لايحول عنه إلا خبيث المحتد لاخلاق له" والثانية : "الوفاء لمن غدر ويلزم بذلك المحب دون المحبوب" وهذه – كما يقول : "خطة لايطيقها إلا جلد قوى واسع الصدر.." وقد عرض ابن داود لثانى تلك المراتب وعقد لها باب "من غلبه هواه على الصبر صبر، لمن يهواه على الغدر" وأشار إلى أن هؤلاء يغلبهم الهوى فيعطل فيهم التمييز ويبطل عندهم فعل

---

(١) د . الجوارى ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

الإرادة (الزهرة ص ٢٤٣) وثالث مراتب الوفاء : أن يفى المحب لمحبوبه" مع اليأس وبعد حلول المنايا وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجل، وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء" .

وقد جعل ابن حزم للوفاء آداباً وشروطاً : "وللوفاء شروط على المحبين لازمة فأولها أن يحفظ[1] عهد محبوبه ويرعى غيبته وتستوى علانيته وسريرته ويطوى شره وينشر خيره .. ويحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولايخيفه به" [2] .

ولقد كان ابن حزم أخف على المحبين فى آداب الحب من سلفه محمد بن داود وأرفق بهم منه فقد حملهم ابن داود ماتنوء به الجبال وتهوى تحت طائلة أشداء الرجال ولكن ابن حزم كان واقعياً أفاد من سيرته ومن مشاهداته فلم يسترسل فيما استرسل فيه ابن داود المثالية التى لاتطيقها أبناء آدم .. والتى لاتوجد إلا فى أخلاق الملائكة[3] .

وابن حزم يقيد بالوفاء : "المحب" لا "المحبوب" ويعلل بأن المحب هو البادىء بالمودة، والمحبوب مخيرّ فى القبول أو الرفض . والفارق بينهما كالفارق بين المغناطيس وقطعة الحديد التى تنجذب إليه، فنفس المحب قاصدة إلى نفس المحبوب، باحثة عنه مشتهية لملاقاته جاذبة له لو أمكنها، والحركة إنما تكون من الأقوى. وابن حزم يتلاقى مع الكاتب الفرنسى "ستندال" الذى يقول : "إن الرجل فى الحب مهاجم، والمرأة مدافعة، والرجل مخاطر جسور بينما المرأة متوجسة متخوفة.[4]

---

(١) فى الأصل فأولها يحفظ بدون "أن" .

(٢) الطوق / ٩٣ - ٩٦ .

(٣) د . الجوارى ص / ٢٠٧ .

(٤) مشكلة الحب ص ٢٣٦ والطوق ص ٩٦ .

أبعاد الحب عند ابن حزم : يمكن أن نجملها فى ثلاثة أبعاد :

١ - البعد الفلسفى : وقد أفاد ذلك من قدرة العقل الأندلسى على إمعان النظرة، وربط الأسباب بالمسببات، كما أفاده من ثقافته الكلامية المذهبية فقد كان رجل فكر وفسلفة، من ذلك قوله : "وإنى ماورويت قط من ماء الوصل إلا زادنى ذلك ظمأ، وهذا حكم من تداوى بدائه" فهذه فكرة تقوم على حقيقة نفسيه مؤداها : أن بعض الأشخاص - صغاراً كانوا أم كبارا - قد يقعون تحت سطوة المحظور نتيجة حرمانهم من أشياء . تشتهيها نفوسهم ، وتتعلق بها ، وتظل الثورة تؤج فى صدورهم كلما حركتها شوة الحصول على هذا المحظور، لايهدأ لهم بال إلا باجتراحه بعد معاناة نفسية بين التقدم والإحجام، كآدم وحواء : لم يهدأ لهما فكر، حتى أكلا من الشجرة التى كان الله سبحانه نهاهما عنها بقوله :

"وياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، فكلا من حيث شئتما ، ولاتقربا هذه الشجرة، فتكونا من الظالمين"(١).

وكهذا الطفل الذى تنهاه أمه عن الإغارة على طبق الحلوى المحفوظ فى الخزانة إلا بإذنها، لكنه ينتهز فرصة انشغالها، فيغافلها، وهو يتلصص ليرتكب فعلته .

بعد ذلك تفيء النفس إلى رشدها وتتحرر من هذا الصراع أو تقع فريسة له لأنها تستمرئه وتستعذبه ، فينقلب هذا الاستمراء أو - بمعنى أدق - الحرمان إلى ظمأ كلما ارتوى لايقنع، بل ازداد تعلقاً، والتهبت الشهوة تسعراً، فهو يطفى غلته ليظمأ، ويظمأ ليطفيء الغلة ، فهو واقع بين شقى الرحا فى الحالين، ولعل ابن حزم نظر فى هذا إلى قول مجنون ليلى :

---

(١) الأعراف آية / ١٩ .

تداويت من ليلى بليلى وحبها كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

أو نظر إلى قول أبى نواس :

دع عنك لومى ، فإن اللوم إغراء وداونى بالتى كانت هى الداء

وهذا دليل على أنه قد تركزت جميع النساء فى نظره فى هذه الحبيبة لايرى غيرها، ولايود أن يفارقها ولايشبع من متعها .

٢ - البعد الصوفى : ومثل هذا الحب الذى يفنى فيه المحب يأخذ غالباً سمة الحب الروحى، لاسمة الحب المادى الذى يبحث عن متع الجسد، وهذا مانعته : بالحب الصوفى ، أو الذى عانى تجربة الفناء ، حتى لو لجأ المتصوفُ إلى الرمز سبيلاً لكلامه، وهو مالا نجده عند أديبنا .

فابن حزم قد عشق الجمال المادى المحسوس، ولكنه لم يتخذه طريقاً للوصول إلى الجمال الإلهى .. والحق كما يصوره شعراء الصوفية، هو الجمال الأزلى المطلق، المعشوق على الحقيقة فى كل جميل وقد تجلى فى جميع صور الجمال لكى يعشق لأن طبيعته الأزلية قد اقتضت ذلك، بل إن مايسمى بالحب الإنسانى ليس فى الحقيقة إلا حباً إلهياً، وبرزخاً إليه .

٣ - البعد الوجدانى : إن ابن حزم قد بلغت به حدة الغرام درجة جعلته يتمنى أن يشق قلبه، ويضع فيه الحبيب، ويطبق صدره عليه إلى يوم القيامة ...

وددت بأن القلب شق بمدية وأدخلت فيه، ثم أطبق فى صدرى

فأصبحت فيه لاتحلين غيره إلى منقضى يوم القيامة والحشر

تعيشين فيه ماحييتُ، فإن أمتْ سكنت شغاف القلب فى ظلمة القبر

وبرغم حدة العاطفة وسكرة الحب فإن الصورة الشعرية رديئة، ولن يرضى الحبيب أن يحبس طول حياته فى قلب محبه، فهو سجن أبدى مظلم.(١)

---

(١) راجع الحب ومذاهبه النفسية والجمالية ص ٧٠ - ٧٤ .

دليل الكتاب

﴿ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ﴾

وإذا كان ابن حزم قد أخفق فى معظم صوره الشعريه، التى لاتعد طرازاً شعرياً يحتذى فى تصوير الحب أو التعبير عنه فإن مما يحمد له أسلوبه النثرى، الذى بلغ به أعلى درجات الجودة حيث سهولة اللفظ ، ودقة المنهج ، وترابطه، وبعد غوصه وتحليلاته النفسية واعترافاته العاطفية، والفهم الجيّد لأبعاد ماتناوله، وربما تعلقت فكرة بموضوعين فيذكرها فيهما بتفصيل فى الأول وإجمال فى الآخر، ليقوم كلاهما بذاته، لهذا غلب عليه الإطناب والتكرار، إلا أنه لايجلب مللاً ، ولايذهب بجمال التعبر؛ لهذا جاءت معانيه واضحة لاإغلاق فيها ولاإبهام .

والخلاصة : **أن حقيقة الحب فى الطوق** : قامت على فكرة تأملية ومعاناة شخصية بين الرجل والمرأة تبلغ تمامها بتمام لقائهما جسدياً . والحب يزيد وينقص، يقوى ويفتر، وربما انقلب كراهية تأثراً بما يحيط الطرفين من ظروف وملابسات.!

إلا أن غاية البراعة فى بيان ابن حزم : أنه يحدثك أحياناً عن أشياء واضحة تحسّها لأول مرّة، تأخذ عليك مجامع إحساسك، وتلك رسالة الفن الأدبى .!

كما يحمد له : كثرة الاستشهاد بالقرآن والحديث النبوى، يعالج بهما أمراضاً بشرية كالغدر والكذب والفجور .. بل أوقف باباً على "قبح المعصية" وآخر على "فضل العفة" وأقام هذا على أساس من الإسلام ، وتلك رسالة الفقيه الداعية .!

❊ ❊ ❊ ❊